كان ياما كان

(٢)

• جزيرة اللؤلؤ
• الغراب المسحور
• المغامر الصغير

تأليف

محمد سعيد العريان   أمين دويدار

محمود زهران

الطبعة الخامسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

جزيرة اللؤلؤ

١

كان عطية ولداً يتيماً ؛ فقد مات أبوه ، وماتت أمُّه ، ولم يترُكا له شيئًا يعيشُ منه ، ولم يكن أحدٌ يعطف عليه ، غيرُ عمه نُعمان .

وكان عمه نعمانُ صياداً فقيراً ، يصطادُ السمكَ من البحر ، ويذهبُ به إلى السوق فيبيعُه . وكان يسكنُ مع ابنته وزوجته فى دار صغيرة ، قريبة من شاطئ البحر .

عاش عطيةُ فى بيت عمه منذ مات أبوه ، فكان عمه يحبه ويعطف عليه . ولكنَّ زوجةَ عمه كانت امرأةً قاسية ، تعاملُه بعُنْف ، وتخاطبه بخُشونة ، وتكلفه من العمل ما لا يُطيق . وكان عطيةُ يشعُر بقَسوتها عليه ، وكراهتها له ، فيتحمَّلُ ويصبر ، ولا يجد أحداً يشكو إليه همَّه ، غيرَ بنت عمه خديجة .

وكانت خديجةُ بنتًا لطيفة ، طيبةَ القلب ، رقيقةَ الشعور ، فكانت تلاطفه وتُواسيه ، حتى يذهبَ همُّه ، وينشرحَ صدره .

وكان عطيةُ لا يزال غلامًا صغيراً ، لينَ العود ، لا يَقْوَى على العمل ؛ ولكنَّ زوجةَ عمه — مع ذلك — أشارت على زوجها نعمان ، أن يشترىَ له شبكة ، ويُشَيِّعه إلى البحر ليصطاد ، ويساعده على

كَسْب العيش . ومع أنه كان صغيرَ السن ، قليلَ المعرفة ، لم يتمرَّنْ على الصيد بعد ، فإنه — طاعةً لزوجة عمه — حَمل شبكتَه على كتفه، وذهب إلى البحر ليصطاد .

كان الجوُّ حارًّا ، والريحُ ساكنة ، والبحرُ هادئًا ، فوقف عطيةُ ينظُرُ إلى البحر بسُرعة ، فراقَه هدوءُ الماء ، وسكونُ الموج ، وبَدا له أن يسبحَ قليلاً لينشَط ؛ فوضع شبكتَه على الشط ، وخلع جلبابَه ، ونزل فى الماء . وكان ماهراً فى السباحة ، فأخذ يسبَحُ ويسبح ، حتى ابتعد عن الشاطئْ بُعْداً كبيراً ؛ ثم خرج من الماء يبحثُ عن جلبابه ، فلم يجده . فأخذ ينظرُ يمينًا وشمالاً ، فلم يرَ حولَه أحداً، فاغتاظ غيظًا شديداً . وجلس على الشط مهمومًا ، يلعنُ ذلك اللصَّ الخبيث ، الذى نكده ونغص عليه ، ثم حمل شبكته ،ورَوَّح إلى البيت خائفاً . وقابلتْه زوجة عمه ، فلم تَكَدْ تعلم بما حدث ،حتى انهالت عليه ضربًا ولَكْمًا ، فلم يخلصْه منها إلا عمه .

وفى صباح اليوم التالى ، أيقظته زوجةُ عمه مبكراً ، وأمرته أن يذهبَ إلى البحر ، وحذَّرته أن يرجعَ إليها خائبًا ، كما رجع أمس ؛ فحمل شبكتَه ، وذهب إلى البحر . وكان الجوُّ عاصفًا ، والموجُ هائجًا ، فخاف أن ينزلَ فى ذلك الوقت ، وجلس ينتظرُ على الشاطئْ حتى يهدأ البحر . وأخذ يلعبُ فى الرمل ، ويُخرجُ منه أنواعًا من

الوَدع والمحار والصَّدف ، ثم جمع من هذه الأنواع أحسنهـَا منظراً ، وألطفـَها شكلاً ، وأخذ يـَثقـُبها ويؤلف بينها ، حتى نـَظـَم منها عـِقداً جميلا ، فوضعه فى مـِخـْلاته ، ليقدمـَه هدية ً إلى ابنة عمه . فلم يـَكـَد ْ ينتهى من نـَظـْم ذلك العقد ، حتى كان الوقتُ قد فات ، فعاد إلى البيت ولم يـَصْطـَد سمكة ً واحدة .

فلما رأته زوجة ُ عمه ، سألته عما صَنع فى يومه ، وخـَطفت المخـْلاة من يده ونظرت فيها ، فلم تجد ْ غير ذلك العقد الذى نظـَمه من الودع ، فرمت المخلاة ، وانهالت عليه ضربـًا ، فلم يخلصْه منها فى هذه المرة ، إلا بنتُ عمه خديجة . وانزوَى عطية ُ فى ركن من أركان البيت يبكى ، فجاءت إليه خديجة ُ تسألـُه عما صنع ، فحكـَى لها حكايةَ العقد الذى ضيـَّع فيه يومـَه ، فتناولتـْه بيدها ، ونظرت فيه ، فأعجبها شكلـُه ونـَظـْمـُه ، فشكرته على هديته الجميلة ، وأخذت تلاطفه ، حتى انبسـَط وزال ما به من الهم .

فلما كان اليوم ُ الثالث . استيقظ عطية ُ مبكراً ، وحـَمل الشبكةَ والمخلاة ، وذهب إلى البحر ، وكان على طول الطريق يدعو اللهَ أن يرزُقـَه ويوفقه .

وكان الجوُّ صافيـًا ، والهواء ُ معتدلا ، والأمواج تمس ُّ الشاطئ فى هدوء ، ثم ترتد ُّ عنه فى لين ورفـْق ؛ فعزم على ألا يخلعَ ثيابـَه على الشاطئ ْ ، ولا يلعبَ فى الرمل ، وأن يبذ ُلَ جـُهده فى ذلك اليوم ،

لعلَّ اللهَ أن يرزُقَه رزقًا طيبًا ، يبيضُ وجهَه ، ويُرضى زوجةَ عمه . ثم نزل إلى البحر ، وجمع أطرافَ الشبكة فى يديه ، وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وطرَح الشبكةَ فى الماء ، وصبر عليها برهة ، ثم شدَّ الحبلَ قليلا ، فوجد الشبكةَ ثقيلة ، ففرح واستبشر ، وأيقنَ أنه صيدٌ سمين ؛ فاستجمع قوَّته ، ولف الحبل على يديه ، وثبَّت قدميه فى الأرض ، وشدَّ بكل قوته ، فانقطعت الشبكةُ وتمزَّقت ، لأن الشبكةَ كانت ناشبةً فى صخرة ، وهو يظنها ممتلئةً بالسمك .

نظر عطيةُ إلى الشبكة الممزَّقة ، فامتلأ بالهم والغم ، وتذكَّر زوجةَ عمه القاسية ، وقدَّر ما ينتظره من عقاب . . .

٢

جلس عطيةُ على الشاطئ مَغمومًا حزينًا ، ووضع الشبكةَ بين يديه ، يحاولُ إصلاحَها ، حتى لا يعودَ إلى البيت بيد فارغة ، وشبكة مقطَّعة . فأخذ يربُط خيوط الشبكة خيطًا إلى خيط ، ويوصِّل أطرافها طرَفًا فى طرَف ، آملاً أن يعيدها كما كانت ؛ واستغرَق ذلك وقتًا طويلاً ، فلم يكدْ ينتهى حتى انتهى النهار ، فروَّح مُنكسراً حزينًا ، يندبُ حظَّه وسوءَ بخته .

فلم تكدْ تراه زوجةُ عمه ، حتى قرأت فى وجهه الخيْبة ، فجذَبته من طَوْقه ، وألقته على الأرض ، وأهْوَت عليه بعصًا غليظة ، حتى

أشبعتْه ضربًا ، وهى تصيحُ وتصرُخ ، وتسُبّ وتشتم ؛ فأقبل عمه نحوهما يسأل عما جرَى ، فصرخت فى وجهه قائلة : هذا ولدٌ خائب ، لا يصلُح لشىء ، إننى لا أحبه ، ولا أطيق رؤيته ! فَلْيخرجْ من البيت الذى أنا فيه ، ولْيذهبْ ليبحثَ عن رزقه بنفسه ، ويتعلمَ كيف يعيش!

ظل عطيةُ صامتًا ، حتى فرغت زوجةُ عمه من صياحها ، وهدأت ثورتها ، ثم التفت إلى عمه وقال فى هدوء وانكسار : إننى أعتذر إليك يا عمى ، وأرجو ألا تحزنَ أو تغضبَ علىّ . إن زوجةَ عمى لا تريد أن ترانى فى هذا البيت ، فليكنْ لها ما تريد ، وسأذهبُ من غد ، لأبحثَ عن رزقى بنفسى . وإنى أشكرُ لك عطفَك وبرَّك ، وحنانك وحسنَ رعايتك ! ثم طأطأ رأسه ، ومسحَ دموعَه ، ومشى إلى غرفته ، قبل أن يسمعَ من عمه كلمةً واحدة .

وقضَى عطيةُ ليلتَه صاحيًا ، لم يَغْمَضْ له جَفْن ، فلما شَقْشَق الفجر ، تسلَّل فى الظلام ، وخرج من البيت طريداً شريداً ، ليس معه من حُطام الدنيا شىء .

إلى أين يذهب هذا المسكين ؟ وماذا يعمل ؟ وكيف يعيش ؟ وأين ينام ؟ لقد صار وحيداً فريداً ، ليس له بيت يؤويه ، ولا أهلٌ يعطفون عليه ، ولا صاحبٌ يأنس إليه .

وأخذ عطيةُ يمشى حتى أشرقت الشمس ، وخرج الناس إلى أعمالهم ، وذهب كلٌّ فى طريقه يبحثُ عن رزقه ، ويسعَى إلى غرضه .

وعطيةُ يسير ، ليس له غرضٌ يسعى إليه ، ولا طريقٌ يعرفُ آخرَه . واستمر يمشى حتى اشتدت حرارةُ النهار . وسال العرقُ على جبينه ، ودبَّ المللُ فى جسمه ، ولكنه ظل ماشيًا ، لا يشعُرُ بحرارة الشمس ، ولا يُحس دَبيبَ الملل ، ولا يشكو ألمَ الجوع والتعب .

واستمر يمشى ، ويمشى ، حتى غابت الشمس ، وهدأت الحركة ، وروَّح الناس ؛ وظل هو سائراً فى طريقه ، مطأطئ الرأس ؛ لا ينظرُ وراءه ، لأنه لا يريدُ أن يعود ؛ ولا ينظر أمامَه ، لأنه لا يعرفُ أين يذهب ؛ ولا يتلفتُ حواليه ، لأنه لا يعرفُ أحداً ، ولا يريد أن يعرفَه أحد .

واستمر يمشى ، ويمشى ، حتى تقدَّم الليل ، وسطع البدرُ فى السماء ، وبَسط نورَه على الأرض ، وهو لا يزالُ يسير ؛ لا يُحس أن النهارَ قد فات ، ولا يَشعُرُ أن الليلَ قد أقبل ، ولا يدرى كم مضَى عليه من الزمن وهو سائرٌ فى طريقه .

وفجأةً أحسَّ كأن أصواتًا تناديه ، وكأن أشباحًا تجرى وراءه ، وكأن فى رجليه قيوداً تشده إلى الأرض ؛ فوقف ، ونظر فيما حوله ، فلم يَرَ أحداً ، ولم يسمعْ حسًّا ، ولم يجد وراءه إلا ظلَّه يتبعه ، فى صحراء مُوحشة ، ليس فيها إنسانٌ ولا حيوان ، ولا دارٌ ولا نار . . أين هو الآن ؟ لقد ابتعد عن المدينة والناس ، وعن البيوت والعُمران ، وانتهى إلى هذه الصحراء المُترامية ، التى لا أولَ لها يعرفُه ، ولا آخرَ ينتهى إليه ، فليس تحتَ قدميْه إلا الظلال ، وليس حواليه

إلا الرمال ، وليس فوقَه إلا القمرُ الساطع ؛ والنجومُ اللَّوامع .

شعر عطيةُ بالوَحدة الموحشة ، ودبَّ دَبيبُ الخوف فى قلبه ، وأفزعه هذا السكونُ الرهيب ، وذلك الفضاءُ البعيد ؛ فوقف برهةً يَسْتَرجعُ حَواسَّه ، ويفكرُ فى أمره . وبينما هو واقف ، سمع صوتًا يُشْبه هَديرَ الموج ، فأدرك أنه قريبٌ من البحر ، فأخذ يسيرُ على صوت الأمواج ، حتى وصل إلى شاطئ البحر . وكان التعبُ قد هَدَّه . والجوعُ قد أنْهكه . والسيرُ قد أضْنَاه . فلم يكدْ جسمُه يَمَسُّ رملَ الشاطئ ، حتى راح فى نوم عميق .

واستمر عطيةُ فى نومه ، يتنقلُ فى الأحلام من واد إلى واد ، فلم يستيقظْ إلا على صوت أجَشَّ يناديه ، ويد غليظة تهزُّه بعنف ؛ ففتَّح عينيه ، فإذا رجلٌ طويلٌ جَسيم . تَبصُّ عيناه بَصيص الغضب ، وترتعشُ شَفَتاه رعْشةَ الغيظ . . .

٣

. . . هبَّ عطية من نومه مذعوراً يرتعدُ من الخوف ، فسأله الرجلُ بغلْظة : من أنت أيها الغلام ؟ وماذا جاء بك إلى هذا المكان ؟ إن هذه البُقعةَ لا يطرُقها أحدٌ بغير إذنى ، فكيف تجرَّأت على دخولها ؟

قال عطية : مَعذرةً يا سيدى ، إننى لم أكنْ أعرفُ ذلك ، وقد قادتْنى رجلاىَ إلى هذا المكان من غير قَصْد ، وإنما أنا عابرُ سبيل ، ليس لى غايةٌ أقصدها ، ولا غرضٌ أسعى إليه . . ثم جرَتْ دموعُه على خده ، واحتبس صوتُه فى حلْقه ؛ فأشفقَ عليه الرجل ، فأجلسه وجلس إلى جانبه ، وسأله أن يقُصَّ عليه قصتَه ؛ فاطمأن عطيةُ وذهب عنه الخوف ، وأخذ يحدثُ الرجل ويحكى له حكايته . فلما فرغ من حديثه ، أخذ الرجلُ يسليه ويُواسيه ؛ ثم قام وغاب عنه مدة ، وعاد ومعه بعضُ الطعام ، فقدمه إليه وهو يقول : كلْ يا بُنىَّ فإنك جائع . . فأخذ الفتى يأكلُ حتى شَبِع وحَمد الله ، ثم قال : أشكرك يا عم على إحسانك وعطفك ، وإنى ليَسرُّنى كلَّ السرور أن أبقى معك ، وأن أقومَ بخدمتك إذا رضيت ! فابتسم الرجلُ وقال : يا لَيْت يا بنى ! إنك لن تستطيعَ معى صبراً . . قال الغلام : ستجدنى إن شاء الله

صابراً ولا أعصى لك أمراً . . فنظر إليه الرجلُ فى حزْم وقال : فإن بقيتَ معى فلا تكلمْنى فى شىء ، ولا تسألْنى عن شىء . . . .

٤

جلس الرجلُ فوق صخرة على الساحل ، يُحدق بعيْنَيه فى الماء ، ويرقُب الأمواجَ مُقبلةً ومدبرة . كلما أقبلت موجةٌ نهض واقفًا على قدميه ، كأنما ينتظرُ رسالةً تأتيه على ظهر موجة من أمواج البحر ، وجلس عطيةُ إلى جانبه ، ينظرُ إليه مرة ، وإلى البحر مرة ، ويتعجبُ من حركات الرجل وسكناته . ومن قلقه ولهفته ، وكلما همّ أن يسألَه عما يرى ، تذكّر الشرطَ الذى اشترطه الرجلُ عليه ، فيسكتُ على قلق ، ويصبرُ على مضَض .

وفجأةً وقف الرجلُ على قدميه ، وانحدر نحوَ الماء ، ثم انحنى فالتقط شيئًا قذفه الموج ، فحدّق فيه بلهفة . ثم أخذ يرقُص فرحا ، ويصيحُ سروراً ، ويهتف قائلا : الليلةَ يا بنى . . . ! فنظر عطيةُ إلى الرجل مدهوشًا لا يفْقَه شيئًا مما يرى . ولا يفهم شيئًا مما يسمعُ .

ثم هدأ الرُجل واطمأن ، وعاد إلى مجلسه ، ونظر إلى عطيةَ وقال : إنك مُسْعَدٌ يا بُنى ، فهذه هى الليلةُ الموعودة ، التى لا تأتى إلا مرةً واحدة فى كل عام !! فإذا جاء المساء ، وسطع القمر ، وانتصَف الليل ،

فقد آن وقتُ العمل . . فهزّ عطيةُ رأسَه موافقًا ، وهو لايدرى من الأمر شيئًا . . . .

مضت الساعاتُ بطيئةً ثقيلة ، وعطيةُ ينتظرُ ويترقّب ؛ وطال به الوقت ، وضايقه الترقب والانتظار ، فقام يخلع ثيابه ، ليقطع الوقت بالسباحة ؛ فأدركه الرجل ، وجذبه من ثيابه وهو يقول : ماذا تريد ؟ أأنت مجنون ؟ احذر أن تقترب الساعةَ من البحر ! فعاد الغلام إلى مكانه ، وقد أقلقته الهواجس ، وحيّرته الظنون وجعل يسأل نفسه : ماذا يريد هذا الرجل أن يعمل ؟ وماذا ينتظر فى تلك الساعة ؟ وأى سر وراء ذلك الغموض ؟

وانحدرت الشمسُ نحو المغيب ، وألقت على البحر ضياءها الأصفرَ الشاحب ، وأخذت الأمواجُ تتدافعُ فى عُنف وسرعة ، ثم أقبل الليل ، وبرز القمرُ فى السماء ، وكان بدراً فى تمامه ، فألقى أشعّتَه على البحر ، ومد خيوطَه إلى الماء ، كأنما يجذبه إلى السماء ؛ فارتفع ماء البحر وامتدّ على الساحل ، حتى كاد يجرُفُ الصخرةَ العالية ، التى يجلسُ عليها الرجلُ والغلام .

فى ذلك الوقت ، كان المدُّ قد بلغ غايتَه ، فهبَّ الرجلُ واقفًا وقال : قد آن وقتُ العمل يا بُنى !

وفى لمحة عين ، أخرج الرجلُ قِرْبةً مطوية ، ونفخها حتى امتلأت هواء ، ثم التفت إلى الغلام وقال : استمعْ يا بُنىَّ وكن واعيًا . . بعد لحظة ينتصفُ الليل ، وتأتى الساعةُ الموعودة ، وسأركب هذه القربةَ

العوّامة ؛ فإذا جاءت تلك الساعة ، رأيت مَوْجةً عاليةً كأنها جبل ، تندفعُ إلى الشاطئ ، فتغْمُر الساحلَ وتغطى الصخرة ، ثم ترتدُّ مسرعة ؛ فإذا رأيت هذه الموجةَ مقبلةً من بعيد ، فاثبُتْ فى مكانك ، واحذرْ أن تَقْتلعَك من موضعك ؛ فإذا وجدتَها تريدُ أن تَرْتَدَّ إلى البحر ، فادفعْنى معها بقوة ، ثم اتركنى لها ، فإنها ستحملنى إلى حيثُ أريد . .

أما أنت ، فستبقى فى مكانك على الشاطئ ، فإذا كان عصرُ الغد ، فسترانى إن شاء اللهُ عائداً إليك ، على ظهر موجة أخرى ؛ وحينئذ يكون الحظُّ قد ابتسم لى ولك . أما إذا انقضى النهارُ ولم أعُدْ إليك ، فهيهاتَ هيهاتَ أن ترانى بعد .

. . . . وما عليك حينذاك ، إلا أن تُوَلِّىَ وجهَك جهةَ الغرب ، ثم تمضى فى طريقك ، لا تنحرفُ يَمْنةً ولا يَسْرة ، حتى يعترضَك جبلٌ عال ، فيه مغارةٌ معلَّقة ؛ فإذا رأيتَ هذه المغارة ، فقفْ تحتَها عند السَّفْح ، واهتفْ بصوت عال :

« نَفَذَ المَقْدور ، ووقع المحظُور ، وذهب عمٌ منصور » .

حينئذ ينفتحُ بابُ المغارة ، ويهبطُ إليك رجلان ، أحدهُما طويل ، والآخرُ قصير ؛ فيسألانك عما جرى ، فانفردْ بأطول الرجلين ، وأسِرَّ إليه بما رأيت ؛ وإياك أن يعرفَ الرجلُ الآخرُ شيئًا مما كان ! . . .

ولم يكد الرجلُ ينتهى من حديثه إلى عطية ، حتى أبصر الموجةَ العاليةَ مقبلةً من بعيد ؛ فما كاد الرجلُ يراها ، حتى انبطَح على ظهر قرْبته ، واحتَضنها بذراعَيْه ، وأغْمَض عينَيْه . أما عطية ، فثبَّت

رجلَيْه فى الأرض ، وانحنى على صاحبه مستعدًّا ، فلما همت الموجةُ أن ترتد ، دَفَع إليها الرجل بقربته . ووقف ينظر إليه وهو يعلُو ويهبط ، ويميلُ ويعتدل ، حتى غاب عن عينيه .

٥

مضت الساعاتُ متلاحقة ، وعطيةُ فى مكانه ، وعيناه معلَّقتان بالبحر المائج ، يسائلُ نفسَه عن صاحبه ، الذى حملتْه الأمواجُ إلى حيثُ لا يعلم . لا يدرى أيعودُ إليه ، أم يبلَعُه موجُ البحر ويدفنُه بين طيَّاته .

وانقضى الليلُ الطويل ، وأخذت أشعةُ الصبح تتراءى لعينيْه ، ثم انتشر النورُ فأضاء البحرَ والساحل ، وعطيةُ واقفٌ فى مكانه ، ولم تزَلْ عَيْناه معلقتَيْن بالبحر ؛ واستمرت الشمس تُصعَدُ فى مدارها ، حتى توسَّطت السماء ، وذابت الظلالُ من شدة الحر ؛ فليس على الساحل كله بقعةٌ ظليلة ، يُوِيءُ إليها عطيةُ من وَقْدة الشمس .

ومالت الشمسُ عن كبد السماء ، وأخذت طريقَها إلى الغرب ، وبدأت الصخورُ المشرفةُ على البحر تمدُّ ظلالَها قليلا قليلا ، حتى صار ظلُّ كل شىء مثْليه . .

حينذاك ، أيقن الصيادُ الصغيرُ أن وقتَ العصر قد حان ، وأن

موعدَ صاحبه قد اقترب ؛ فاعتلَى الصخرة ، ومد عينيه وراءَ الأمواج ، ينتظرُ مَقْدمَه ، ويترقبُ طلعتَه .

وانحدرت الشمسُ للغروب ، وهدأت أمواجُ البحر ، وأخذ ماؤه يصفرّ ، وعطيةُ ما يزالُ واقفًا فى مكانه ، يترقبُ وينتظر ؛ ثم اختفى قُرصُ الشمس وراءَ الجبل ، واحمرّت السماءُ حُمرةَ الشفَق ، وتكاثفت الظلالُ على الظلال حتى اسودّتْ ، وبدأ الظلامُ يُخيمُ على كل شىء ، ولكنّ الرجلَ لم يرجع ، ولم يظهرْ له أثر .

فانقبضَت نفسُ الغلام ، وضاق صدرُه ، وتبلبلَ فكرُه ، وهتَف يائسًا : لقد ذهب عم منصور ، ولن يعود ! . . ثم أولَى البحرَ ظهرَه ، واتخذ طريقَه نحوَ الغرْب ؛ ولم يزَلْ ماشيًا حتى بدا له الجبلُ العالى ، ورأى المغارةَ المعلّقة ، فوقف دُونَها عند السَّفْح ، وهتفَ بصوت حزين :

« نَفَذَ المقدور ، ووقعَ المحظور ، وذهب عم منصور ! »

فلم يكدْ ينتهى من هُتافه ، حتى انفتح بابُ المغارة ، وأطلّ منه رجلان ، أحدُهما طويلٌ نحيل ، والثانى قصيرٌ سمين ، فتدلّيا على سُلّم من الحبال ، ونزلا إلى الأرض ، وأسرعا إلى عطيةَ يسألانه فى لهفة عما جرَى ؛ فانْتحَى بالرجل الطويل ناحية ، وقص عليه ما حدث ؛ فما كاد الرجلُ يسمعُ منه ، حتى ظهر الحُزْنُ فى وجهه ، وتغرْغرَت عيناه بالدمع ، وقال فى صوت مخنوق : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ! . . لقد ذهب أخى ولن يعود ! . . هكذا يفعلُ الطمعُ بأهله ! . .

ثم التفت إلى الفتى وقال له : شكراً لك يابُنَىّ . . ثم صعد إلى المغارة . فغاب قليلاً ، ثم عاد وفى يده لُؤلؤةٌ ثمينة ، فقدّمها إليه وهو يقول : خُذ هذه يا ولدى مكافأةً لك ؛ وستبقَى ضيفًا علينا هذه الليلة ، فإن طريقَك صَعب ، وبينك وبينَ العُمْران سفرٌ طويل ، وأخاف عليك أن تَتُوهَ فى هذه البَيْداء ، أو يعترضَك وَحشٌ كاسرٌ فى الطريق .

ثم أحضر له طعامًا وشرابًا ، وجلس يُؤاكلُه ويُشاربُه ، ويحادثُه ويُؤانسُه ؛ ثم فَرش له فَرْشًا فى فَجوةٍ من فَجَوات الجبل ، وجلس بجانبه حتى نام ، ثم تركه وصعد إلى المغارة .

فلما كان الصباح ، أيقظَه وفَطَّره ، وجلس يحدثُه حتى انتهى من فَطُوره ، ثم قال له : إلى أين يا بُنَىَّ تريدُ أن تذهب ، لأدلّك على الطريق ؟ فبَدت الحَيْرةُ على وجه الغلام ، وتذكر وَحْدتَه وانقطاعه ؛ فملأت الدموعُ عينيه ، وظلّ صامتًا لا يُجيب ؛ فطَبْطَبَ عليه الرجلُ بحنان وعَطف ، وقال له : مالك يا بُنَى ؟ فانحدرت الدموعُ على خديْه ، وقال بصوت مخنُوق : إننى لا أدرى أين أذهبُ يا عمّ ؛ فليس لى بيتٌ ولا أهل ! . . فتأثّر الرجل ، وسأله أن يَقُصّ عليه قِصتَه . فلما عرفها رَقّ لحاله وقال : إن شئتَ يا بنى فابْقَ عندنا ؛ ولكنْ على شَرْط ، ألا تسألَ عن شىء ، ولا تُعارضَ فى شىء . قال عطية : ستجدنى إن شاء اللهُ خادمًا مُعينًا ، وصاحبًا أمينًا .

٦

عاش عطيةُ فى ذلك المكان ، وأخذ تلك الفَجْوةَ فى الجبل بيتًا له ، ينام فيه بالليل ، ويستريحُ فيه بالنهار . ومضت الأيام ، وتعاقبَت الأسابيع ، وعطيةُ فى تلك البرية المنقطعة ، ليس له شُغْلٌ إلا ما يكلفهُ الرجلُ من عمل هين ، فيؤديهَ بإخلاص ونشاط ، ثم يأوى إلى مغارته الصغيرة ، لينامَ أو يستريح . أما المغارةُ المعلَّقة ، فلم يصعَدْ إليها مرةً واحدة ، ولم يعرفْ من أمرها أو أمر سُكَّانها شيئًا .

ويظهرُ أن هذه المغارةَ لم تكُنْ للرجل وأخيه الثانى وحدهما ، فقد كان يبدو أحيانًا فى ظلام الليل ، حين يُوقَدُ مصباحُ المغارة ، ثلاثةُ ظلال تتحرَّك . . .

وكان الرجل بينَ حين وحين ، يسافرُ فى البادية ، فيغيبُ يومًا أو يومين ، ثم يعودُ ومعه طعامٌ وشراب ، وثيابٌ وحَلْوَى ؛ وكان يعيشُ فى سَعَة من الرزق ، ويتمتَّعُ تمتعَ الأغنياء ، لا يكاد يَنْقُصُه شىءٌ من أسباب النعيم !

واستمرت الشهورُ تتعاقب ؛ ومضى الصيف ، ومضى بعده الخريف ، ثم جاء الشتاء ، وجاء بعده الربيع ، وابتدأ حرُّ الصيف ، وأوْشَكَ أن يمرَّ عام . . .

وفى ليلة مُقْمِرَة من ليالى الصيف ، جاء الرجلُ إلى عطية ، وقال له : هل لك يا بنيَّ أن تَصْحَبَنى إلى نُزهة قصيرة ، فى هذا القمر الجميل ؟ .. فقام معه عطية ، وأخذا يمشيان فى الصحراء الموحشة ، وحيدَيْن مُنفردَين ، يُطلُّ عليهما القمر ، وتنبسطُ حَولَهما الرمال ، وتَزِفُّ فى آذانهما الرياح ؛ واستمرا سائرَين ، حتى سمعا هَديرَ الموج فى البحر ، فانطلقا يمشيان على شاطئه ، حتى انتهيا إلى الصخرة القائمة ، فجلسا عندها يستريحان . . .

وكان نسيمُ البحر رَطْبًا بَليلا ، وهديرُ الموج عذبًا جميلاً ، والأمواجُ تتدافعُ فى عُنف وسرعة ، والقمرُ يسطعُ فى السماء ، ويُلقِى أشعتَه على البحر ، فيمتدُّ ماؤه ويزيد حتى يغمُرَ الساحل .

رأى عطيةُ هذا المنظر ، فتذكَّر تلك الليلةَ الفريدة ، التى قضاها مع عم منصور ، على هذا الشاطئ ، فوق هذه الصخرة ، فى مثل هذه الليلة ، مُنْذُ عام ؛ ومرَّت بخاطره ذكرَى ذلك الرجل الطيب ، الذى طَواه الموج ، وطَوى معه سرَّه الغامض ، فلم يعرفْ عنه منذُ تلك الليلة خبراً ، ولم يسمعْ له ذكراً .

وخيَّم السكونُ على الرجل والغلام ، وكل منهما سارحٌ فى أفكاره ، ومضت فَتْرةُ صمت طويلة ، نظر بعدها الرجلُ إلى عطية ، وقال فى

صوت حزين : هذه يا بُنىّ ليلةُ منتصَف الصيف ، التى أترقبُها وأحسُبُ لها منذ عام كامل . . إنها الليلةُ التى ذهب فيها أخى ولم يَعُدْ ، وإن ذكراه لَتتمثّلُ فى خاطرى صباحَ مساء ، فلا يَهنأ لى طعامٌ ولا شراب ، ولا أستريحُ فى نوم ولا فى يقظة ؛ وقد عزمت أن أسلُكَ طريقَه ، وأتبعَ أثرَه ، فإمّا عَرفتُ خبرَه وبلغتُ غايتَه ، وإما ذهبت كما ذهب !

ثم سكت لحظةً وقال : فإذا انتصف الليل ، وجاءت الساعةُ الموعودة ، ورأيتَ الموجةَ العاليةَ مقبلةً من بعيد ؛ فاستعدّ لها ؛ فإذا رأيتَها تريدُ أن ترتدّ ، فادفعْنى إليها . . فإذا جاء عصرُ الغد ولم أعُدْ إليك ، فاذهبْ إلى المغارة ، واهتفْ بصوت مسموع :

« نَفَذ المقدور ، ووقَع المحظور ، وذهب عم مسرور ، كما ذهب عم منصور » .

حينئذ خفَق قلبُ عطيةَ خفْقًا شديداً ، واستولت عليه الرّهبة ، وفتح فمَه يريدُ أن يتكلم ، فصاح به الرجلُ غاضباً : صَهْ !! ألم أشترطْ عليك ألا تسألَ ولا تعترض ؟

ثم قام الرجل ، فأخرج قربةً مَطْوية ، ونفخها حتى امتلأت هواء ، ثم انبطح على ظهرها ، واحتضنها بذراعَيْه ؛ وتهيأ للرحلة المجهولة.

وأقبلت الموجةُ من بعيد ، وثبّت عطيةُ قدميْه فى الأرض ؛ فلما همت الموجةُ أن ترتدّ ، دفع إليها الرجلَ بقربته ، وثبَت فى مكانه ينظر إليه ، حتى غاب عن عينيه . . . .

وانقضى الليل ، ومضَتْ ساعاتُ النهار ، وحان وقتُ العصر ؛ وعطيةُ لا يزالُ فى مكانه ، ينتظرُ أن يعودَ صاحبُه « مسرور » ، أخو منصور ! ولكنَّ الشمسَ غابت ولم يعُدْ مسرور ؛ فهبط عطيةُ عن الصخرة ، واتخذ طريقَه إلى المغارة يائسًا حزينًا . فلما وصل ، وقف عند السفْح ، يهتفُ بصوت مخنوق :

« نَفَذ المقدور ، ووقع المحظور ، وذهب عم مسرور ، كما ذهب عم منصور ! » .

فانفتح بابُ المغارة ، وهبط إليه أخوه الثانى ، ملهوفًا ، مُنْتقعَ الوجه ؛ فلما عرف الخبر ، انحدرت الدموعُ من عينَيْه ، وقال فى تأثر شديد : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله .. قاتل الله الطمع ! .. ثم سكت قليلا وقال : هذا قضاء الله لا مفر منه ؛ فإذا كان فى العمر بقية ، وعشتُ إلى العام القادم ، فلا بدَّ أن أتبعَ أثرَ أخوىَّ ، فإما عُدتُ ، وإما ذهبتُ كما ذهبا !

قال عطيةُ معترضًا : يا سيدى . . . فقاطعه الرجل صائحًا : اسكُتْ ، وإلا فاذهبْ عنى إلى حيثُ تشاء ! . . فطأطأ عطيةُ رأسَه صامتًا ، وبدا عليه الانكسارُ والهم .

٧

ومضى العام ، وانتصفَ الصيف ، وحانَت الليلةُ الموعودة ، فحمل الرجل قربتَه ، وانطلق إلى البحر ، وعطيةُ يتبعُه مُستسلماً ،

فلما وقفا على الصخرة ، قال الرجل : إنى ذاهبٌ يا بُنَىّ : فإذا لم أعُدْ إليك قبلَ العصر ، فقد نفَذ المقدور ، ووقع المحظور ، وذهب « مشهور » كما ذهب منصورٌ ومسرور .

ثم نفخ قربتَه واستعد . . .

فلما جاءت الموجة ، دفعه عطيةُ إليها ، ووقف ذاهبَ النفس ، شاردَ اللب ، منكسرَ القلب ، يسأل اللهَ أن يكتبَ لصاحبه السلامة . ولكنْ — وا أسَفَا — لقد جاء العصرُ ولم يعُد مشهور .

وتزاحمت الخواطرُ فى رأس الغلام ، ولم يَدر ماذا يصنع ، ولا أين يذهب ، وقد عاد وحيداً فريداً ، ليس له رفيقٌ ولا صديق ، ولا عملٌ ولا أمل ، وقد ذهب الإخوةُ الثلاثةُ واحداً بعد واحد ، وذهب معهم ذلك السرُّ الغامض ، الذى لم يكشفْه ولم يعرفْ عنه شيئًا .

واتخذ طريقَه إلى المغارة ، صامتًا حزينًا ، تتجاذبُه الأفكار ، وتتنازَعُه الهواجس ؛ فلما بلغ سَفْحَ الجبل ، رفع عينيه إلى باب المغارة ، يَنْدُب أصحابَها بلَحْن حزين ، وصوت يقطعُه الأنين :

« آه ! نفَذ المقدور ، ووقع المحظور ، وذهب مشهور . كما ذهب مسرور ، ومنصور ! »

فما فرغ من لحنِه ، حتى انفتح بابُ المغارة ، وظهر منه شبَحٌ عجوز محطَّمة ، ترتعشُ من الضعف والهرَم ؛ فأمسكت بيديْها جانبَ الباب ، واستنَدت إليه ، ونظرت إلى تحت ، وهى تصيحُ فى جزَع ولهفة : ذهب مشهور ! ماذا تقولُ أيها الغلام ؟ ثم همَّت أن تهبطَ

إليه . فأيقن عطيةُ أنها أمُّ الرجال الثلاثة ، فأشفق عليها أن تسقُطَ من الضعف والهم ؛ فقال بصوت هادئ : لا تجزَعي يا أماه ، وأذني لي في الصعود إليك لأخبرَك الخبر .

فدلَّت إليه الحبال ، فتسلَّق عليها ، حتى بلغ المغارة ؛ ثم أخذ يحدث العجوزَ بما جرى ، من أوله إلى آخره . والعجوزُ مُنْصتةٌ إليه تستمع ، وهي تُصَعِّدُ الزَّفرات ، وتَذرفُ العَبَرات ؛ فلما فرغ عطيةُ من حديثه ، قالت العجوز : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ! قد كنا في غنًى عن ذلك ، ولكنه الطمع ؛ وكثيراً ما حذَّرتُهم فلم يَحْذروا ، ونصحتهم فلم ينتَصحوا . . .

ثم أخذت في البكاء وهي تصيح : آه يا أولادي الأعزاء ؛ كيف هان عليكم أن تذهبوا وتتركوني وحدي ! .. ثم سقطت مَغْشيًّا عليها . فقام عطية يرُشُّ وجهها بالماء ، حتى أفاقت ؛ ثم جلس بجانبها يُسليها ويواسيها ، ويمنيها برجوع أولادها . قالت العجوز : يا ليتَ يا بني ! ثم سكتت قليلاً وقالت : هل تسمحُ يا ولدي فتَصْحبَني إلى الشاطئ الذي ركبوا منه ، لعل ذلك يخففُ بعضَ ما بي من الهم والحزن ؟ فقام عطيةُ يساعدها على النزول ، حتى نزلت ، ثم سلَك باب المغارة ، وانطلق يمشي بجانب العجوز ، وهي تتوكَّأ عليه ، وتستندُ إليه ، حتى وصلا إلى شاطئ البحر . . .

٨

جلست العجوزُ فوق الصخرة ، وجلس عطيةُ بجانبها ، يحدثُها ويخففُ عنها ، حتى أنِستْ به ، واطمأنت إليه ؛ فأخذت تقصُّ عليه قصةَ الرجال الثلاثة ، الذين ذهبوا فى تلك الرحلة المجهولة ، على ظهور الأمواج ، إلى حيثُ لا يدرى أحد . . .

قالت العجوز : لقد كان أبوهم يا بنىَّ تاجراً من تجار اللآلئ ، اجتمع له من تجارته ثروةٌ طائلة ، فعاش فى سَعَة من الرزق ، وغنًى من المال ؛ ولم يكن أحدٌ يدرى من أين يجلبُ اللآلئَ ، التى جمع منها تلك الثروة . . .

وكان يتهيَّأُ كلَّ عام لرحلة مجهولة ، فى ليلة منتصَف الصيف ؛ غير أنه لم يكن يغيبُ فى تلك الرحلة ، إلا يومًا أو بعض يوم ، ثم يعودُ وجرابُه مملوءٌ بأنواع من اللؤلؤ لا تقدَّر بمال ، فيبيعُ منها ما يبيع ، ويُبقى عنده ما يُبقى ، حتى جمع ثروةً عظيمةً ومالاً جَمًّا ؛ ولكنه على رغم ما حصَّل من الغنى والثروة ، لم ينقطعْ سنةً واحدةً عن تلك الرحلة ؛ ولم يكن أحدٌ منا يدرى شيئًا عن ذلك السر . . فلما حضَرَتْه الوفاة ، كشف لى ذلك السر ، وأخبرنى عن ذلك المكان الذى يرحلُ إليه ويجلب منه اللآلئ . . على أن ذلك المكانَ يا بنىَّ بعيد ، ليس له طريقٌ

موصوف ، ولا مركبٌ معروف ، وإنما تحملُه إليه موجةٌ من موج البحر ، لا تأتى إلا مرةً واحدةً كل عام ، فى ليلة منتصَف الصيف ، حين يكتملُ البدر ، ويبلغُ مَدُّ البحر غايتَه . . فى تلك الليلة ، كان يركبُ قربةً عوّامة ، ويُسْلِمُ نفسه إلى تلك الموجة ، فتقذفُه إلى جزيرة بعيدة ، فيها من اللآلئ والجواهر ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ؛ فلا يزال ينتقى من هذه اللآلئ ما يعجبُه ، حتى يمتلئ جرابُه ، ثم يعود على ظهر الموجة ، فتحمله آيبة ، كما حملتْه ذاهبة ، ولا يستغرقُ ذلك كله إلا يومًا أو بعضَ يوم . وقد كان كلُّ ما يحرص عليه ، أن يكونَ عند الشاطئ ، فى ساعة موقوتة ، تتحركُ فيها هذه الموجة ؛ فإذا تأخر لحظةً عن ذلك الموعد الموقوت ، ضاعت عليه الفرصة فلا يتهيأ له أن يعودَ إلا بعد عام كامل ، حين ينتصفُ الصيف ، ويكتملُ البدر ، ويبلغُ المدُّ غايتَه .

ليتنى يا بنىّ لم أعرفْ هذا السر ! أو ليتنى حين عرفته لم أتحدَّثْ به إلى أحد من أولادى ؛ فقد اشتغلتْ قلوبهم بذلك الأمر ، منذ عرفوا ذلك السر ؛ وطمع كلُّ واحد منهم أن يكونَ مثلَ أبيه ؛ وقد كنا فى غنًى عن ذلك بما عندنا من ثروة ومال ، ولكن قاتل اللهُ الطمع ، فقد حرمنى أولادى ، وأفْرَدنى فى الحياة بلا أهل ولا ولد !

ثم غطَّت وجهَها بيديها ، وأخذت تبكى ، حتى كادت تقطعُ النفَس ؛ فتأثر عطيةُ لمنظرها ، وجعل يواسيها ، ويقول لها : لا تجزَعى يا أماه ؛ واعتبرينى ولداً من أولادك ، تعتمدين عليه فى كل ما تَرْجين ، حتى يأذنَ اللهُ بالفرج ، ويعودَ إليك أولادك بالسلامة !

قالت العجوز : هيهاتَ يا بنىّ ، وهل بقى فى عَوْدتهم أمل ؟ قال عطية : لا تيْأسى من رَوْح الله يا أمى ؛ وقد عزمتُ على أن أبذلَ كل جُهدى لمعونتك ؛ فإذا كان العامُ القابل ، فسأحاولُ أن أركبَ البحر إلى هذه الجزيرة ، لأبحثَ عن إخوتى الثلاثة ؛ وسنعودُ إليك جميعًا إن شاء اللهُ سالمين غانمين ! فابتسمت المرأةُ وقالت : يا ليت يا بنى ، هذا رجاءٌ لا يكثُرُ على الله !

٩

عاش عطيةُ مع العجوز سنةً كاملة . يَخدُمها ، ويُطعِمُها ، ويَسقيها ، ويؤنسُها ، ويسليها ؛ وكان بين حين وحين يسافر فى البادية ، ومعه بعضُ اللآلئ ، فيبيعُها فى المدينة ، ويشترى من ثمنها ما يحتاجان إليه من طعام وشراب ، وثياب وحلْوى ؛ وظلاً على هذه الحال ، حتى انتهى العام . . .

فلما انتهى العام ، وجاءت ليلةَ منتصَف الصّيف ، استعد عطيةُ لرحلته ، فأحضر قرْبةً كبيرة ، وصنع فيها سُيوراً من الجلد ، ليربُطَها حولَ جسمه ، وملأ جرابًا بالطعام ، وزمْزَميَّةً بالماء ؛ ثم ودَّع العجوز ، وسألها صالحَ الدعوات ، وانطلق وحيداً فريداً إلى البحر !

فلما وصل إلى الشاطئ ، أعدَّ عُدتَه ، ونفخ قربتَه ، ثم خلع ثيابَه ، ودهن جسمَه بالزيت ، وانبطحَ على القربة ، وربط السيورَ حولَ جسده ، وعلَّق الجرابَ والزمزميةَ في وسَطه ، ولبث ينتظرُ الساعةَ الموعودة ؛ وما هي إلا لمحة ، حتى أقبلت الموجة ، فغمرَت الساحلَ غمْرة ، ثم ارتدت إلى عطيةَ فحملتْه بقربته ، ثم أوْغلتْ في البحر . .

وأخذت القربةُ ترتفعُ وتنخفض ، وتميلُ وتعتدل ، وعطيةُ فوقها ، يرتفعُ معها حينَ ترتفع ، وينخفضُ معها حين تنخفض ؛ تارةً يكون فوقَها ، وتارة يصير تحتَها ؛ فلولا أنه مشدودٌ إلى القربة بسيور الجلد ، لَهَوَى إلى قرار البحر . وكان ماءُ البحر يلطمُ عينَيه لَطْمًا شديداً ، ويَصُكُّ أذنيه صَكًّا عنيفًا ، حتى خُيل إليه أنه فَقَدَ السمعَ والبصر ؛ ودار رأسُه من لَطَمات الموج ، وشَرِق بالماء حتى تعذَّر عليه النفَس ، واسترخت أعضاؤه استرخاءَ الموت ؛ فأيقن أنه هالكٌ لا محالة ، وأن آخرتَه قد دنَت ، وأن مصيرَه سيكونُ مثلَ مصير أصحابه الثلاثة ؛ فاستسلمَ لقضاء الله ، وترك نفسَه للمقادير . . .

وهنا وثبتْ به الموجةُ وَثبةً هائلة ، ثم قذفتْه قَذفةً بعيدة ، فإذا هو مطروحٌ على شاطئ الجزيرة ، فاقدَ الوَعْي ، غائبَ الرُّشْد ،

لا يُحس ولا يشعُر ، ولا يسمعُ ولا يرى . وظل طريحًا على الشاطئ ، حتى أشرقت شمسُ الصباح ، وأرسلت إليه أشعتَها الدافئة ، فأخذت تدبُّ فيه الحياة ، وتعود إليه قُوته قليلا قليلا ؛ حتى استفاق وفتَّح عينيه ، فرأى نفسَه راقداً على فراش من العُشْب الرَّطب ، والقربةُ مشدودةٌ إليه ، فأخذ يحلُّ أربطتَها . . .

ثم نهض واقفًا ينظر حواليه ؛ فإذا هو فى جزيرة عجيبة ، فيها من اللآلئ والجواهر ما لا يخطُر على بال ، ولا يتمثلُ فى خيال !

١٠

فرح عطيةُ فرَحًا شديداً ، حين عرف أنه قد وصل إلى جزيرة اللؤلؤ ؛ فترك قربتَه على الشاطئ ، وأخذ يتمشى فى أرض الجزيرة ، ويتفرجُ فى نواحيها ، ليتعرَّفَ ما فيها ؛ فلم يكد يخطو بضْعَ خطَوات ، حتى سمع صوتًا يناديه فى لهفة ؛ فنظر ، فإذا رجلٌ جالسٌ تحت شجرة مُثمرة ، على جدول ماء جار ، فقصد إليه ليسأله عن خبره ، فما كاد ينظرُ فى وجهه . حتى تملَّكه العجبُ والدهشة ، وملأه السرورُ والفرح ، فهتف صائحًا : عم مشهور ! الحمد لله على سلامتك . . ثم أسرع إليه يريد أن يحتضنَه ، فتحمَّحل الرجلُ فى مجلسه ، ولكنه لم ينهضْ لتحيَّته ، ولم يخِفَّ لاستقباله ؛ فزادت دهشةُ عطية . وقال : ماذا بك يا عم مشهور ؟ فتغرْغرَت عينا الرجل ، وقال بصوت

حزين : معذرةً إليك يا بنى ؛ إننى لا أستطيعُ النهوض ، فقد رمتْنى الموجةُ على صخرة من صخور الشاطئ ، فتركتْنى كسيحًا عاجزاً عن الحركة ؛ فلولا ماءُ هذا الجدول ، وثمرُ هذه الشجرة ، لمتُّ ظمأً وجُوعًا . . قال عطيةُ آسفًا : لا بأسَ عليك يا عمّ ، شفاك اللهُ وعافاك !

ثم جلس يحدثُه بما كان من أمره ، ويسألُه عما كان من خبره ؛ فقال الرجل : إننى يا بنىَّ لم أذقْ طعمَ اللحم مُنذُ عام ! فقام عطيةُ يبحثُ عن صيد فى الجزيرة ، يُهيئُه طعامًا لصاحبه ؛ وأوْغلَ فى الجزيرة مسافةً طويلة ، فإذا به يرَى على بُعد ، دخَّانًا ونارًا ؛ فقصد نحوَ النار ، فإذا رجلٌ جالس ، قد صنع كانونًا من الحجارة ، يشوى عليه لحمًا ، فناداه عطية ، فلم يردَّ عليه ، ولم يلتفتْ إليه ؛ فاقترب منه ووقف بإزائه ، فلم يكَدْ ينظرُ إلى وجهه ، حتى عَقَدت الدهشةُ لسانَه . وهبَّ الرجلُ واقفًا حين رآه ، وصاح فى فرح : عطية ! كيف جئتَ يا بنىّ ؟ قال عطية : أنت هنا يا عم مسرور ؟ فهز الرجلُ رأسَه ولم يُجب . فعاد عطيةُ يسأله : ماذا كان من خبَرك يا عمى ؟ فهزَّ الرجلُ رأسَه ، ثم قال بعد صَمْت : معذرةً يا بنىّ ؛ إننى لا أسمع شيئًا مما تقول ؛ لقد لقيت من المشقة فى تلك الليلة المشئومة ما لا يُحتمل ، وظلت الأمواج تصُكنى صكًّا شديداً ، حتى تركتْنى أصمَّ لا أسمع شيئًا . فقال عطية آسفًا : لا بأس عليك يا عمّ ؛ شفاك الله وعافاك ! فهزّ الرجلُ رأسَه مرة أخرى وقال : ماذا تقولُ يا بنى ؟ . . .

فى تلك اللحظة ، سمع عطيةُ صوتًا يَصْدُر من بعيد ؛ فوضع إصْبَعَه على فمه ، يطلبُ إلى مسرور أن يَصْمُت ؛ ثم أنصت ، فإذا غناءٌ مؤثرٌ شَجِىّ ، يترددُ فى نغمة حزينة ؛ فاتجه عطيةُ نحو الصوت ، فإذا رجلٌ طويلٌ جسيمٌ ، فى يده عصًا مَنْجُورة من أغصان الشجر ، يتعكزُ عليها ، ويدبُّ بها على الأرض . وهو يغنى بصوت عَذب ، فيه حنانٌ ورقَّة :

وارَحْمَتَا للغريب فى البلد النـ ـازح ماذا بنفسه صَنَعَا
فَارَقَ أحْبابَه فما انتفعوا بالعيش من بَعْده وما انتفعنا

وقف عطيةُ لحظة يستمعُ إلى هذا الغناء الساحر ، متأثراً من عذوبة الصوت ، وجمال اللحن ؛ وتَذكر وَحدتَه وغُربتَه ، وانقطاعَه عن الناس فى هذه الجزيرة النائية ، فتغَرْغَرتْ عيناه بالدمع . واستمر الرجل يغنى :

وارحمتا للغريب . . . .

فلما فرغ من أغْنيته ، اندفع عطيةُ نحوه ، حتى وقف أمامه ؛ فما إنْ رأى وجهَه ، حتى هتف مسروراً :

— عمّ منصور . . .

فوقف الرجل وقال مضطربًا : مَنْ ؟ مَن يُناديني ؟ قال عطية : ألا تعرفُنى يا عمى ؟ فظهرت الحيرةُ فى وجه الرجل وقال : هذا صوتٌ أعرفه ! ثم خطا خَطوة ، ومدّ يده يتحسسُ وجهَ الغلام وهو يقول : كأنك عطية ! ولكن أين عطيةُ منى فى هذه الجزيرة النائية ؟ فدهش

عطيةُ لحركته ، واستعجب لقوله ، وقال : أنا عطية ؛ فماذا بك يا عمى ؟ فطَأطأ الرجلُ حزينًا ، وقال بانكسار : معذرةً يا بنى ؛ إننى لم أعرفْك لأنى لا أراك ؛ فقد عَمِيتُ من شدة لطَمات الأمواج فى تلك الليلة المشئومة ؛ وخرجتُ إلى هذه الجزيرة أعمى ، لا أرى ولا أبصِر ! قال عطيةُ يواسيه : كفاك اللهُ السوءَ يا عمى ، وإنى لأرجو أن يرتَدَّ إليك بصرُك إن شاء الله ! قال الرجلُ فى حزن : دَعْ عنك هذا الحديثَ يا بُنى ، وَخبرْنى كيف تركتَ أخوَىَّ وأمى ؟ فضحك عطيةُ وقال : أخوَيك ؟ إنهما معك هنا ، فى هذه الجزيرة !

فتح الرجلُ فمَه مستعجبًا ، وقال : هنا ؟ فى هذه الجزيرة ؟ ماذا تقولُ يا عطية ؟ قال : نعم يا عمى ، وسيجتمعُ الشَّمْلُ بعد افتراق !

ثم أخذ بيده ، وسارا يتحدثان ، ويحكى كل منهما لصاحبه . حتى وصلا إلى مكان مسرور ؛ فلما التقى الأخَوان . تعانقا فى فرح وتأثُّر !

ثم مشَوْا جميعًا إلى حيثُ كان مشهورٌ ينتظر . وكان منظراً مؤثراً حين اجتمع الإخوةُ الثلاثة ، وأخذوا يتبادلون عبارات الشوق والمحبة ، ويشكرون اللهَ على نعمة اللقاء .

١١

كان النهار قد انتصف ، قبل أن يفكر عطيةُ وأصحابه فى طريق العودة ، وكانت الموجةُ قد ارتدت آيبة ، فلم يكن لهم سبيلٌ إلى الرجوع إلا بعدَ عام كامل ؛ فأسفوا أسَفًا شديداً لفَوَات هذه الفرصة ، وتصوَّروا أمهم العجوز ، تنتظرُ أن يعودَ إليها عطية ، فلا يعود ، فتعتقدُ أنه قد ذهب كما ذهب أبناؤها الثلاثة ، فيغلبُها اليأس ، ويقتلُها الحزنُ والهم . . قال عطية : أرجو أن يحفظَها اللهُ حتى نعودَ إليها سالمين غانمين ، فلا تَشْغَلوا أنفسَكم بالتفكير فى أمرها ، وتعالَوْا نهيئ أنفسَنا للإقامة فى هذه الجزيرة عامًا آخر ، حتى يَحينَ الميعاد .

ثم قام من ساعته ، وصحبه مسرور ، وتركا الأعمى والمُقْعَدَ يتسلَّيان بالحديث ، وراحا يضربان فى أرض الجزيرة ، فاصطاد صيداً سمينًا ، وهيَّآ طعامًا شهيًّا ؛ فلما أكلوا واستراحوا ، صنعوا لهم كوخًا من فروع الشجر ، وجمعوا فيه كل ما يحتاجون إليه . . ثم أخذوا يستعدون للرحلة الأخيرة ؛ فاصطادوا ثلاثةَ ثيران ، فأكلوا لحومَها ، وصنعوا من جلودها قِرَبًا ، واتخذوا لها أربطةً من سُيور الجلد ، وجعلوا لكل واحد جراباً ، وأخذوا يجمعون من لآلئ الجزيرة ما يحبون ، و يَنْتَقون من

جواهرها ما يشتهون ، حتى ملأكل منهم جرابَه بأجمل أنواع اللآلئ ، وأغلَى ألوان الجواهر .

وانتهى الصيف ، وانتهى بعده الخريف ، وجاء الشتاء ، وجاء بعده الربيع ؛ ثم ابتدأ الصيفُ من جديد، وحان موعد الرحلة ؛ وكان الإخْوان الأربعة قد أعدُّوا عُدتَهم . فلما جاء اليومُ الموعود ، كانت القربُ الأربعةُ مطروحةً على الشاطئ ، وعلى كل قربة منها رجلٌ منهم ، قد ربط أذنَيْه بمنديل ، وغطَّى عينيه بمنديل ، وشدّ نفسَه إلى قربته شدًّا مُحكمًا ، وعلَّق فى وسطه جرابَه المملوء .

وجاءت الموجة ، فغمرت الساحلَ غَمْرةً ثم ارتدّت ، فحملت معها الرجالَ الأربعة ، وقد انبطَحوا على عَوّاماتهم مُسْتسلمين .

وارتفعت الموجةُ ثم هبطت ، ومالت القرَبُ ثم اعتدلت ؛ وكانت الأمواج تَلطمُهم لطْمًا شديداً ، وتصُكهم صَكًّا عنيفًا ؛ ولكنهم من شدة فرحهم ، لا يكادون يُحسون بشىء ؛ فلما كان العصر ، وثَبت الموجةُ وَثْبةً هائلة ، ثم قذفتهم قَذفةً بعيدة ، فإذا هم جميعًا على الشاطئ المعهود ، عند الصخرة القائمة ، كأنما لم يفارقوها إلا منذُ الليلة الماضية ...

١٢

رفع منصورٌ الرباط عن عينيه ، ثم صاح فرحًا : إننى أرى كلَّ شىء ؛ هذا هو الساحل . . هذه هى الصخرة . . هذا هو الطريق . . لقد زالت الغشاوةُ عن عينىَّ !! وكان مسرورٌ قد فكَّ الرباطَ عن أذنيه ، فصاح مُغْتَبِطًا جَذلان : ماذا تقول يا أخى ؟ كأننى أسمعُك تتحدث ؛ يافرحتى ! قد خفَّ الوَقْرُ عن أذنىَّ !

فى هذه اللحظة ، كان مشهورٌ قد حلَّ سيورَ الجلد عن جسده ، وسار إليهما وهو يعرج ، ويصيح فى سرور : يخيَّل إلىَّ أننى أستطيعُ أن أمشى ، لقد انفكَّ القيدُ عن رجلىَّ !

قال عطية : الحمدُ لله على سلامتكم يا إخوانى ؛ لقد كنت على يقين بأننا سنعودُ سالمين غانمين ، بفضل دعاء أمنا العجوز الطيبة . ثم مشى الأربعةُ فى الطريق ، يهنئُ بعضهم بعضًا بالسلامة ، ويدعون اللهَ أن تكونَ أمهم بخير . فلما انتهَوْا إلى المغارة ، وقفوا عند السَّفْح ، يُنادون أمَّهم فى حنين ولهفة ؛ فما كاد صوتهم يرنُّ فى الفضاء ، حتى انفتح الباب ، وأطلَّتْ منه العجوز ، فأخذوا يتسابقون فى الصعود إليها مسرعين .

* * *

فرحت العجوزُ بعَوْدة أولادها وحمدت اللهَ على سلامتهم ؛

وفرح الرجالُ برؤية أمهم سالمة ، وشكروا عطيةَ على إخلاصه وصدق معونته ؛ وفرح عطيةُ باجتماع شَمْلهم بعد الشتات ، وتحقيق أملهم بعد اليأس ، وحمد اللهَ على هذه الخاتمة السعيدة . .

ثم تذكر عمَّه نعمان ، الذى فارقه هذه السنينَ الطويلة ، لا يعرفُ عنه خبراً ، ولا يسمعُ له ذكراً ؛ فاشتاق إلى رؤيته ، وحَنَّ إلى لقائه ؛ فقال لأصحابه : الآن وقد تحقق رجاؤنا ، واطمأنت نفوسُنا ، أرجو أن تأذنوا لى فى الذهاب إلى عمى ، فقد اشتاقت نفسى إلى رؤيته ، وحنَنْت إلى لقائه !

فتعلق به الرجالُ الثلاثة ، وأمهم العجوز ، وقالوا : والله لا تفارقُنا أبداً ! لقد كنتَ سبباً فى سعادتنا ، كما كنت سبباً فى سلامتنا ! قال عطية : إنَّ قلبى لا يُطاوعُنى على فراقكم ، ولكنَّ عمى ليس له ولدٌ غيرى ، وأخشى أن يكون فى حاجة إلىَّ ! قالوا جميعاً : فإن كان لا بدَّ أن تذهب ، فعاهدنا على أن تعود . قال عطية : سأحضر إليكم كلما سنَحت الفُرصة ، ولا بدَّ أن أزوركم فى كل عام مرةً أو مرتين قالوا : أمَّا إن كان لا بدَّ من ذلك . فلا تنس أن تكونَ معنا فى ليلة منتصَف الصيف من كل عام . . .

* * *

حَمل عطيةُ جرابَه المملوء بالدر والجوهر . وودَّع أصحابَه ، وسار يقطعُ البادية والعُمران ، حتى وصل إلى بيت عمه ، ودقَّ الباب ، ففتحت له زوجةُ عمه ؛ فلم تكدْ تراه ، حتى ملكَتْها الدهشة ، وأخذت

تُحدِّقُ فى وجهه ، لا تكادُ تصدقُ أنه عطية ؛ ثم نادت زوجها فى لهفة : نعمان ، نعمان ، لقد حضَر عطية ! .. فخفَّ نعمانُ لاستقباله فما كاد يراه ، حتى فتح له ذراعيه ، واعتنقه فى شوق ، وقبله فى حنان ؛ ثم قاده إلى داخل الدار وهو يقول فى سرور وابتهاج : أين كنت يابنى ؟ لقد كانت غَيْبةً طويلة !

وجاءت خديجةُ مسرعة ، وفى صدرها عِقدُ الوَدَع الذى نظَمَه لها عطيةُ من أصداف البحر ؛ فلما رآه عطية ، ضحك وقال : ألا يزال هذا العقدُ فى صدرك يا خديخة ؟ فابتسمت وقالت : لقد كنتُ على يقين بأنك ستعودُ يومًا ما وتسألنى عنه !

ومدَّت امرأةُ عمِّه يدها إلى جرابه وهى تقول ضاحكة : ماذا فى جرابك اليومَ يا عطية ؟ قال وهو يضحك : على كل حال ، ليس فيه اليوم وَدَعٌ ولا مَحارٌ ولا صدف ! ثم ناولها إياه ؛ فلم تكَدْ تنظرُ ما فيه ، حتى زاغتْ عيناها ، وانفتح فمها ، وانعقدَ لسانها من الدَّهشة . ومدّ عطيةُ يده إلى الجراب ، فأخرج عقداً ثمينًا من اللؤلؤ ، فقدَّمه إلى ابنة عمه وهو يقول : خذى هذا العقدَ يا خديجة ، فهو ألْيَقُ بك من عقد الوَدَع !

قالت خديجة وهى تتناولُ العقدَ من يده مُعجَبَة : شكراً لك يابن عمى ، ولكنْ لا تنس أن عقدَ الودع ، أعزُّ علىَّ وأغلى عندى ؛ لأنه أولُ هدية تلقَّيتُها من يديك !

* * *

ولم يَمْضِ إلا قليل ، حتى كان عطيةُ تاجراً من أكبر تجار اللآلئ فى المدينة ، قد ذاعتْ له شُهْرة ، وامتدَّ له صيت ، وتَسامَعَ به الناسُ فى كل مكان .

وفى ليلةٍ من ليالى الربيع ، كان فى بيت نعمانَ الصياد ، فرحٌ كبير ، احتَشَدَتْ له المدينةُ كلها ؛ احتفالاً بزَفاف خديجةَ إلى ابن عمها عطية ؛ ومنذُ ذلك اليوم ، عاش نعمانُ الصيادُ وزوجتُه العجوز ، عيشةً راضية ، فى جانب من القصر الكبير ، الذى يسكنهُ العروسان السعيدان .

الغراب المسحور

١

كان « صابرٌ » ولداً فقيراً ، بائسًا ، ليس له دارٌ تؤويه ، ولا أهلٌ يعطفون عليه ، ولا عملٌ يكسب منه ؛ ولكنه مع كل ذلك ، كان ولداً طيبًا ، كريم النفس ، سمْحَ الخلُق ، لا يخاصمُ أحداً ، ولا يخاصمُه أحد . . .

وكان مع فقره وبؤسه ، جميلا ، وسيماً ، مُشرقَ الجبين ، فى عينيه مخايلُ الذكاء والهمة ؛ فلولا ثيابُه المرقَّعة ، وحذاؤه البالى ، لظن من يراه أنه من أبناء الأغنياء والسادة ! . . .

أحسَّ صابرٌ ذاتَ يوم بالجوع ، ولم يكن معه طعامٌ ولا مال ، فأبى أن يَمُدَّ يدَه للناس ، مستَجْديًا ، وأخذ يحتالُ لكسب رزقه بيده ، معتمداً على الله ، فصنع فخًّا من حديد ، وخرج إلى البرية ، فنصب الفخَّ فى طريق بعض الطير ، وهو يسألُ اللهَ أن يرزُقَه رزقًا حلالاً يُشبعُه من جوع ، ويعصمُه من ذُل السؤال . . .

ولم تمض إلا لحظات ، حتى رأى طائراً كبيراً يرفرفُ بجناحَيْه فوقَ الفخ ، فأسرع إليه وهو مسرورٌ بما رزقه اللهُ من صيد ؛ ولكنه لم يكَدْ يرى الطائرَ الذى وقع فى فخه ، حتى حزن وانغمّ ، فقد كان ذلك الطائرُ غرابًا . . .

أمسك صابرٌ الغرابَ بين يديه ، ورفع عينيه إلى السماء وهو يقول فى حزن : يا ربى ، ماذا أصنعُ بهذا الغراب وأنا جائع ؟ هلاَّ كان حمامةً ، أو يمامةً ، أو عصفوراً ، أو شيئًا من مثل ذلك ، لأذبحَه وأتخذَه طعامًا ! . . .

وفى تلك اللحظة ، سمع صابرٌ صوتًا يرنُّ فى أذُنيه : لا تحزَنْ يا صابر ، فلعلى أحسَنُ لك من الحمامة ، ومن اليمامة ، ومن العصفور ! . .

تلفت صابرٌ حواليه ، ليرى مَن يتحدثُ إليه ، ولكنه لم يرَ أحداً ، فدُهش وقال لنفسه : إننى لا أرى أحداً ؟ فمن أين هذا الصوت ؟ وما معناه ؟

وكان الغرابُ لم يزَلْ يرفرفُ بجناحيه بين يديه ، كأنما يحاولُ الإفلاتَ والطيران ، فنظر إليه صابرٌ وهو يقولُ فى غيظ : كُفَّ عن محاولتك أيها الغراب ، وإلا ذبحتُك وأكلتك ، كما يُذبَحُ الدجاج ويؤكَل فإننى أكادُ أموتُ من الجوع ! . . .

فعاد الصوتُ يرنُّ فى أذنيه : صابر ، صابر ، لا تذبحنى ، واستمعْ إلىّ ! فإننى أستطيعُ أن أعينَك عَوْنًا كبيراً إذا أبقيتَ على حياتى . . .

وكانت دهشةُ صابر أشد ، إذ عرف أن ذلك الصوتَ صادرٌ عن الغراب نفسه ، فرفعه إلى عينيه وهو يقول : ماذا ؟ . . . . غرابٌ يتكلم ! . . .

قال الغراب : نعم ، وستكونُ دهشتُك أشدَّ وأعظم ، حين تعرفُ ما أستطيعُ أن أقدمَه إليك من المعونة ! . . .

قال صابر : المعونة ؟ . . . إن كلَّ ما أريدُه الآنَ هو شيءٌ من الطعام يحفظُ عليَّ الحياة ، فإنى أكادُ أموتُ جوعًا ! . . .

قال الطائر : استمعْ إلىّ يا صابر ، إننى أستطيعُ أن أمنحَك أكثر مما تطلب ، إذا أطلقتنى وأسلمتَ جناحىَّ للريح ؛ فاتركْنى الآن ، ولن تندمَ أبداً على ما فعلتَه !

قال صابر : وماذا تستطيعُ أن تمنحَنى ثمنًا لحياتك وحريتك أيها الغراب ؟

قال الطائر : أطلقْنى الآن ، ثم احضُرْ غداً ، إلى هذا المكان ، فى مثل هذه الساعة ، تجدْ هديّةً طيبةً لك ، وتستطيعُ قبل إطلاق سراحى ، أن تنزعَ من جناحى ثلاثَ ريشات تحتفظُ بها ، فإذا وقعتَ فى مأزق فأرسلْ إحداها مع الريح ، فإننى أحضُرُ لمعونتك !

فكّر صابرٌ برهةً فيما سمع من قول الغراب ، ثم قال لنفسه : إننى لم أرَ قبل اليوم غرابًا يتكلم ، فلماذا لا أجرّبُ صدقَه وأفعلُ ما يطلبُه ؟ إن خسارتى لن تكونَ كبيرةً إذا خدعنى هذا الغرابُ الناطق ! . . .

قال هذا لنفسه ، ثم انتزع من جناح الغراب ثلاثَ ريشات وأطلقه فى الفضاء ، فطار مبتعداً عنه وصابرٌ يُتْبعُه عينيه حتى اختفى وراءَ الضباب ، فعاد إلى المدينة وهو يفكرُ فى أمر هذا الطائر العجيب . . .

فلما كان صباحُ الغد ، خرج صابرٌ إلى البرية ، انتظاراً لوعد الغراب ؛ فما كان أشدَّ عجبه ، حين وجد فى الفخ طائراً عجيبًا ، لم

تقعْ عينُه على أجملَ منه ؛ يكسوه ريشٌ بديعُ التصاوير ، جميل التلوين ، وتُزين عرفَه بضعُ جواهرَ غالية القيمة ، نادرة المثال ، لم يتزيَّنْ بمثلها تاجُ ملك من الملوك ؛ وكانت عيناه تُرسلان بريقًا خاطفًا ، كأنهما فصَّان صافيان من الماس ! . . .

قال صابرٌ لنفسه ، وهو ينظُرُ إلى الطائر : حقًّا إنها هديةٌ كريمةٌ أهداها إلىَّ ذلك الغراب ، فلو أنني أردتُ لنزَعت تلك الجواهرَ من عُرفه فبعْتُها فى سوق الجوهريَّة ، فحصَّلت بها ثمنًا أعيشُ به مدَى الحياة سعيداً ، ولكنى لا أريد ؛ فلْتبقَ لهذا الطائر الجميل زينتُه كاملة ، ولأحملْه هديةً إلى الملك ، فإن مثلَه لا يصحُّ أن يعيشَ إلا فى قصر ملك ؛ ولعله يكافئنى مكافأةً سخيَّةً على هذه الهدية ، أو يجعلَ لى وظيفةً أعيشُ بها سعيداً ! . . . .

ثم أسرع فجمع بعضَ أغصان الشجر ، فصنع منها قفصًا جميلاً لذلك الطائر الجميل ، وزيَّنه بزهر مختلف اللون ، طيب العطْر ، ثم غطَّاه ببعض ثيابه ، حتى لا يراه الناسُ أو يعرفوا ما فيه ، ثم حمله وقصد إلى قصر الملك . . .

فلما قرب من القصر جعل الحراس ينظرون إليه فى أسماله البالية ، ويتساءلون مدهوشين : ماذا يحمل هذا الفتى ؟ وأين يقصد ؟ والفتى غيرُ مُبال بنظراتهم ، ولا بأسئلتهم ، لأن قلبَه مغشولٌ بالتفكير فى المكافأة التى يمكنُ أن يكافئَه بها الملك . . .

ووصل صابرٌ إلى باب القصر ، فاستأذن فى المثول بين يدى الملك ،

فنظر الحراسُ إلى ثيابه وهيئته ، ثم ردُّوه عن الباب ساخرين ، لأن الملوكَ لا يأذَنون فى مقابلتهم إلا للأمراء والسادة وكبار الناس . . . . .

٢

قال صابرٌ لحاجب القصر : سيدى ، إننى لم أطلُبْ مقابلةَ الملك لأسألَه منحة ، بل لأقدمَ إليه هدية ، وهى هديةٌ نفيسة ، ستسرُّه كل السرور ، لأنه لم يرَ مثلَها فى حياته !

فكَّر الحاجبُ برهةً ثم قال : هل تُرينى هذه الهدية ؟

فرفع صابر الغطاءَ عن القفص ، فإذا فيه هذا الطائر الجميل ، الذى لم تقَعْ العينُ على أجملَ منه ؛ فقال الحاجب : صدقتَ يا فتى ، إنها هديةٌ ستسرُّ الملكَ كل السرور !

ثم دخل فأخبر الملك ، فأذن له فى الدخول ؛ فلم تكد عينُ الملك تقعُ على الطائر حتى صاح فى دهشة : يا له من طائر جميل ! من أين حصلتَ عليه أيها الفتى ؛ فإننى لم أر فى حياتى طائراً مثله !

قال صابر : لقد وقع فى فخى بالبرية ، فرأيت أن يكونَ هديتى إلى الملك .

قال الملك : ولكن صيَّادين كثيرين يا فتى ، ينصِبون فخاخَهم فى البرية ، فلا يقعُ لهم مثلُ هذا الطائر العجيب ؛ ثم إن فى عُرْفه هذه

الجواهرَ النادرة ، وفى عينيه هذا البريق ، وهو شىءٌ لا يكونُ فى مثله من الطير ، فلا بد أن يكونَ فى الأمر سرٌّ لا تريدُ أن تخبرَنى به ! ...

قال صابر : لست أريد أن أكتمَك شيئًا يا مولاى ؛ فإن لى مع هذا الطائر قصة ، إن شاء مولاى حكيتُها له كما حدثَتْ .

قال الملك : فإنى أريدُ أن تَحكيهَا لى يا غلام !

فأخذ الفتى يقُصُّ قصتَه على الملك ، منذ وقع الغرابُ فى فخه ، إلى أن انتزع الريشات الثلاثَ من جناحه ، إلى أن أطلق سَراحه ، إلى أن رأى ذلك الطائرَ العجيبَ فى فخه . . .

قال الملك باسمًا : ما أجملَ قصتَك يا غلام ، وإن كنت لا أقتنع بالسحر ولا أستطيعُ أن أفهمَه ؛ ولكن الغرابَ كان صادقًا فى حديثه إليك على كل حال ، فقد أتاح لك بهذا الطائر العجيب حظًّا سعيداً ؛ إذ قررتُ لك وظيفةً فى القصر ، فلن تفارقَنا منذ اليوم ، ولن تذوقَ ألم الجوع والحرمان مرة أخرى !

اغرَوْرَقت عينا الفتى بالدموع ، وقال وهو مطأطئُ الرأس : شكراً لك يا مولاى على هذا العطف الكريم ! . . .

وعاش صابرٌ منذُ ذلك اليوم فى قصر الملك ، يلبَسُ الثيابَ الغالية ، ويأكلُ الطعامَ الشهىّ ، وينامُ على الفراش الوثير . . .

وزادته النعمةُ جمالا ووَسامةً وظَرفًا ، فأحبَّه الصغارُ والكبارُ فى القصر ، وقرَّبه الملكُ إليه حتى صار نديمًا من نُدَمائه ، يسامرُه فى سَهَراته ، ويصاحبُه فى غُدُواته ورَوْحاته ، ويُجالسُه فى ساعات أنسه ومَسراته . . .

وكان صابر سعيداً بحياته كلَّ السعادة ، وكان كلُّ مَن فى القصر سعداءَ به ؛ إلا رجلا واحداً ، هو « مُقَاعس » نديم الملك الخاص ؛ فقد غاظه أن يرتفعَ صابرٌ إلى هذه المكانة العالية ، وأن يحظَى من الملك بهذا الرضا ؛ وخشىَ أن يزدادَ مع الأيام قربًا من الملك . فتضيعَ منزلته هو . وينزل عن مكانته . . .

وكان مُقاعسٌ رجلا شريراً ، غليظَ الطبع ، قاسىَ القلب ، مُسرفًا فى حب نفسه . لا يُبالى بما يصيبُ الناسَ من الأذى ، ما دام هو سعيداً متمتعًا بكل ما يشتهيه ؛ ومن أجل ذلك كره صابراً . وأراد أن يدبرَ له مَكيدة ليُزيحَه عن مكانه ، فيخلُوَ له قلبُ الملك ؛ فقصد إلى الملك ذات يوم وقال له : لقد مررت اليومَ بالبستان يا مولاى ، فرأيتُ ذلك الطائرَ الجميلَ حبيسًا فى قفصه الصغير . والحزنُ يكاد يخنُقُه . فرثَيْت لحالته . وتألمتُ من أجله .

وقلتُ لنفسى : أيليقُ بهذا الطائر الجميل ، أن يعيشَ فى هذا القفص الصغير ؟ لو أن هذا الطائرَ قد بُنِىَ له قصرٌ من العاج ، لكان أليقَ به ، وأكثرَ ملاءمةً له !

قال الملكُ ضاحكًا : صدقتَ يا مقاعس ؛ ولكن ، من أين لنا أن نبنى قصراً من العاج ، وكيف يُتاحُ لنا أن نجمعَ من العاج قَدْراً يكفى لبناء قصر ؟

قال مقاعس فى خُبث : أنسيتَ يا مولاى خادمَك صابراً ؟ فإنه قديرٌ على ذلك ، ولو شاء لجمع لك من العاج بوسائله السحرية ، ما يبنى مدينةً لا قصراً ؛ فاطلبْ إليه يا مولاى أن يبنىَ ذلك القصرَ للطائر ، لتضعَ هذا الجمالَ النادرَ فى المكان الملائم له ، ولا تَدَعْ له فرصةً للاعتذار ؛ فإنه غلامٌ مكّار ، يحلو له فى بعض الأحيان أن يروغَ ويزوغَ ؛ ليرى كيف يُسرفُ الناس فى رجائه واستعطافه ، فيزدادُ بذلك عظمةً وكبرياء ! . . .

قال الملك : وهل تراه يروغُ ويزوغُ ويدّعى ذلك معى ؟ . . .

قال مُقاعس : اختبرْه يا مولاى ، ليبدُوَ لك صدقُ قولى فيه ! . . .

قال الملك مغضَبًا : والله إن حاول معى ذلك لأقتلنّه ! . . .

ثم أرسل فاستدعى صابراً إليه ، وقال له : أريدُ يا فتى ، أن نبنىَ قصراً من العاج لذاك الطائر الجميل ! . . .

قال صابر : كيف يمكنُ يا مولاى . . . . . .

فقاطعه الملك قائلا : لا تحاول الاعتذار ! فلا بدّ أن نبنىَ ذلك القصرَ وإلا قتلتك ! . . . . . .

٣

خرج صابر من مجلس الملك وهو مضطربُ البال مشغولُ الفكر ، فمن أين له القدرةُ على بناء قصر من العاج ؟ ومن أين له العاجُ الذى يبنى به ذلك القصر ؟ . . .

وفكر صابرٌ فى الموت الذى ينتظرُه إذا لم يحققْ رغبةَ الملك فى بناء ذلك القصر ، فملأ اليأسُ قلبه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، ولعن الساعة التى قادتْه فيها رجْلاه إلى قصر الملك ؛ ثم لم يلبث أن تذكر الريشات الثلاثَ ، التى انتزعها من جناح الغراب ؛ فقال لنفسه : هذا وقتُ الضيق ، فإذا كان ذلك الغرابُ قادراً على معونتى فهذا أوانُ المعونة . . .

ثم أخذ ريشةً من الريشات الثلاث ، وأطلقها فى الهواء ، فلم تكَدْ تختفى عن عينيه ، حتى رأى الغرابَ مُرَفْرِفًا بين يديه . وهو يقول له فى عطف : ماذا أستطيعُ أن أفعلَ لك يا صابر ؟ هل أنت فى مأزق حَرَج ؟

قال صابر : إننى أكادُ أفقدُ حياتى يا صديقى ؛ فهل تستطيعُ أن تنقذَنى ؟ . . .

قال الغراب : صفْ لى ما كان من أمرك يا صابر ، فلعلى أستطيع مَعُونتَك !

قال صابر : لقد أمرنى الملكُ أن أبنىَ قصراً من العاج للطائر الجميل

الذى أهديتُه إليه ؛ فأين أجدُ مقداراً من العاج يكفى لبناء قصر ؟

قال الغراب : هذا مطلب عسير يا صابر ، ولكنى أرجو أن أتغلَّبَ عليه بالصبر والحيلة ؛ فارجعْ الآنَ إلى الملك ، واطلبْ إليه أن يأمُرَ أتباعَه فيحضُروا أربعين برميلاً من الخمر ، فيجعلوها على أربعين عربة ، يجرُّها أربعون ثوراً ، ويتبعُها أربعون عبداً من عبيد الملك ؛ فإذا تمَّ إعدادُ هذا كله ، فسنمضى معًا إلى الغابة ، ومعنا هذه العرباتُ الأربعون ، تجرُّها الثيران ، ويسوقها العبيد ؛ ثم يكونُ كلُّ شىء بعد ذلك يسيراً . .

أطاع صابرٌ مَشُورةَ الغراب . وقصد إلى الملك فطلب إليه أن يأمرَ بإحضار البراميل ، والعربات . والثيران ، والعبيد ؛ فجهَّزه الملكُ بكل ما طلب . . .

فلما تم إعدادُ كل شىء ؛ قصد صابرٌ والغرابُ إلى الغابة . وسارا فيها مسافةً طويلة ، والعرباتُ تتبعُهما وعليها براميلُ الخمر ؛ وما زال هذا الموكبُ يخترقُ الغابةَ حتى بلغ أقصاها . هنالك نظر الغرابُ حواليه ، ثم قال لصابر : أترَى يا صديقى هذه البئرَ القريبة ؟ وهل ترى بالقرب منها آثارَ بعض الفيلة ؟

فنظر صابر ثم قال : نعم ، إن آثارَ أقدامها قريبةٌ من حافة البئر !

قال الغراب : هذه البئرُ يا صديقى هى التى يشربُ منها الفيلة ، وهى قليلةُ الماء فى هذا الموسم ، ولكن الفيلة تحضُرُ إليها كلَّ يوم لتشربَ من مائها القليل ؛ فإذا نحن أفرغنا فيها الخمرَ التى تملأ هذه

البراميل ، فإن الفيلةَ لا تلبثُ أن تحضُرَ لترويَ ظمأها من ماء البئر ، فتُسْكرَها الخمر ؛ وحينذاك نستطيعُ أن نفعل شيئًا . . .

أطاع صابرٌ أمرَ الغراب ، فأفرغ براميلَ الخمر فى البئر ، ثم توارى خلفَ شجرة من أشجار الغابة ، وجلس ينتظرُ هادئًا . . .

وما هى إلا لحظاتٌ حتى سمع أصواتًا هائلة ، وحركات عنيفة . وأبصر أشجارَ الغابة تهتز ، كأنما زُلزلت الأرض ؛ ثم رأى قطيعًا عظيماً من الفيلة يتجهُ نحو البئر ؛ فقال له الغراب : انظر إلى هذا القطيع الكبير يا صابر ، إن أنيابَه تكفى لبناء قصر عظيم ، فاصبرْ حتى تشربَ الفيلةُ فتَسكَرَ ، فإنها إذا خدّرها الشرابُ رقدت بلا حَراك ؛ فعليك حينئذ أن تُسرعَ إليها فتقطعَ أنيابَها جميعًا ، ثم تحملَها على العربات وتعودَ بها مسرعًا إلى قصر الملك ، فتبلُغَه قبل الصباح !

قال الغراب هذا ، ثم حلّق فى الجو طائراً وهو يقول : كن حَذراً يا صابر ، وأرجو لك حظًّا سعيداً ، وتوفيقًا فى مُهمّتك !

وظل صابرٌ متواريًا فى ظل الشجرة ، حتى أقبلت الفيلةُ على البئر

لتشرب ، فما زالت تَعُبُّ من الخمر حتى امتلأت بطونها ، فتخدّرت ، وثَقُلت حركاتها ، ثم لم تلبث أن رَقَدت بالقرب من البئر كأنها ميتة ؛ حينذاك أسرع إليها صابرٌ والعبيدُ الأربعون ، فأخذوا يقطعون أنيابها العاجية نابًا نابًا ، حتى اجتمع لهم من العاج كُومةٌ كبيرةٌ جدًّا ، فحملوها على العربات ، ثم أسرعوا عائدين بذلك الحمْل الغالى إلى المدينة ؛ فلم تَهِلَّ تباشيرُ الصباح حتى كانوا على أبواب القصر ؛ فحطوا حملهم وجلسوا يستريحون . . .

ووصل الخبرُ إلى الملك ، فجاء ليرى بعينيه ، فسرّه ما رأى ، وأقبل على صابر يهنئهُ بما أصاب من النجاح ، وهو مسرور سعيد . . .

ولم تمض إلا أيام حتى تم بناء القصر للطائر ؛ وكان قصراً جميلاً لم ير الراءون مثلَه ؛ فارتفعت بذلك منزلةُ صابر عند الملك ، حتى صار أقربَ إليه من كل من فى القصر من الأتباع والحاشية . . .

ولكن هذا النجاحَ الذى أصابه صابر ، وهذه المنزلةُ التى نالها من قلب الملك ، كانا سببًا لزيادة أحقاد مقاعس ؛ فأخذ يفكرُ فى مكيدة أخرى يتخلصُ بها من ذلك الفتى المحبوب ! . . .

٤

وقف مقاعسٌ بين يدَى الملك متواضعًا ، ذليلا ، ثم قال له بخبْث : هنيئًا لك يا مولاى ذلك الطائر الجميل ، فى ذلك القصر الجميل ، ولكن . . .

قال الملك : لكنْ ماذا يا مقاعس ؟ . . .

قال مقاعس : هذا الجمالُ الفريدُ يا مولاى ، ينقصُه شىءٌ صغير ، لا يُعجزُك الحصولُ عليه . . .

قال الملك : ماذا ينقصُه يا مقاعس ؟

قال مقاعس : إن هذا الطائرَ الجميلَ يا مولاى ، لا بد أن يكونَ تغريدُه جميلا مثلَه ؛ ولكنى لاحظت أنه منذ حضر إلى القصر لم يُغَرِّدْ تغريدةً واحدةً ، لا فى الصباح ولا فى المساء ، وإنى أرى فى ملامحه حزنًا دفينًا ، وأظنُّ أن سببَ ذلك هو فراقُ صاحبه الأول ، فلو أنه كان قريبًا منه لانطلق يغرّد ، وملأ القصرَ أفراحًا ومسرّات . . .

قال الملك : ومن أين لنا أن نعرفَ مكانَ صاحبه ذاك فنُحضرَه له ؟

قال مقاعس : صابرٌ يا مولاى ، إنه يستطيعُ أن يحضرَ صاحبَه ولا شك ، فإنه فتًى شجاعٌ واسعُ الحيلة ، وما أظنه يضنُّ على مولانا الملك بهذه الخدمة الصغيرة !

قال الملك : أتظنه يستطيع ذلك يا مقاعس ؟

قال مقاعس : نعم ، يستطيعُه ، ولكنه لن يفعلَه إلا إذا هدّدته بالموت ... أتذكرُ يا مولاى كيف كان يدّعى العجزَ عن بناء قصر العاج ؟

قال الملك : نعم ، والله ليفعلَنّ ذلك أو أقتلَه ! . . .

ثم دعا الفتى إليه ، وأمره أن يُحضرَ صاحبَ الطائر ، وهدده بالقتل إن لم يفعل . . .

ضاق صدرُ الفتى بهذا الأمر ، ولم يعرفْ كيف يتصرفُ ، وخشى أن ينفذَ الملكُ وعيدَه فيقتلَه ، فامتلأ همًّا وغمًّا ؛ ثم لم يلبثْ أن تذكّر صديقَه الغراب ، فأخذ ريشةً من الريشتين الباقيتين ، وأرسلها فى الهواء ، فما هى إلا لحظة ، حتى رأى الغرابَ ماثلا بين يديه يقول له : لبّيْك يا صابر ، مُرْنى بما تشاء تجدْنى طوْعَ أمرك ورهنَ مشيئتك !

قال صابر : إننى فى ضيق شديد يا صديقى ، فقد طلب الملكُ إلىّ أن أحضرَ له صاحبَ ذلك الطائر ، وإلا قتلنى !

فأطرق الغرابُ برأسه برهةً ولم يُجبْ ، فاعتقد صابرٌ أن صاحبَه لا يستطيعُ له معونةً فى هذه المرة ، وامتلأ قلبه يأسًا من الحياة ؛ ثم رفع الغرابُ رأسَه قائلا : أىُّ شيطان خبيث حرّض الملك على هذا الأمر الخطير ؟

قال صابر : أتراه أمراً خطيراً يا صديقى ؟ فقد ذهبتْ حياتى إذن ، فإن الملكَ لا بد أن ينفذَ وعيدَه فىّ !

فعاد الغرابُ إلى الصمت برهةً أخرى ، ثم قال : نعم يا صابر ،

إنه أمرٌ خطيرٌ جداً ، ولكنى لا أريدُ أن ينفذَ الملكُ وعيدَه فيقتلَك ، ولا بدّ أن أعينَك على هذا الأمر مهما تكن مصاعبُه ، فاذهبْ إلى الملك ، واطلبْ إليه أن يجهزَ لك مركَبًا كبيراً ، أشْرعتُه من رقائق الفضة ، وصَواريه من الذهب ، وزينتُه من الياقوت واللؤلؤ والمرجان ؛ وأن يجعلَ فيه حُجُرات واسعة ، مؤثَّثةً بخير ما فى القصور من أثاث ، ذاتَ أرائكَ من المخمَّل ، ووسائدَ من ريش النعام ، وأسرّة من الآبنوس ، ومناضدَ من خشب الصَّندل ، وكراسيَّ من العُود الهندى ، وستائرَ من حرير مصر ، وأبسطة من نسْج فارس ؛ ثم يجعل فى كل حجرة من حجراته وَصيفةً ذاتَ أدب وجمال ، تلبَسُ أحسنَ ملبس ، وتتزيَّنُ أجملَ زينة ، وتُحسنُ الحديثَ بكل لغة ؛ ولاتنسَ مع ذلك كله أن يكونَ فى بعض حجراته مائدةٌ مهيَّأةٌ ، عليها كلُّ ما تشتهيه الأنفسُ من طعام وشراب ، وكلُّ ما يحتاجُ إليه الضيف من أوعية وأباريقَ وأكواب ؛ ثم تُجعلُ مجامرُ البَخور فى كل ركن من أركان المركَبَ ، وفى كل حجرة من حجُراته . . . فإذا تمَّ إعدادُ ذلك كله فأخبرْنى الخبر ، وعلىّ بعد ذلك تدبيرُ الأمر لإحضار صاحب الطائر . . .

سمع صابر كلَّ هذا ووعاه ، ثم قصد إلى الملك فطلب منه أن يُعدَّ مركَبًا على ما وصفه له الغراب ، فعظُمَ الطلبُ فى عين الملك ، ولكن ذلك لم يمنعْه من إجابة صابر إلى طلبه ؛ فأخذ النجارون ، والنقاشون المزخرفون ، والمنجّدون ، والسماسرةُ يعملون ليلَ نهار ، أياماً متوالية ،

حتى أعدّ المركبَ بهذا الوصف ، فكان بهجةَ كل من يراه من بعيد، ودهشةَ كل من يطّلعُ عليه من قريب ؛ فلما تمّ تمامُه ، وكمُلَ وصفُه ، حطّ الغرابُ على ساريته الذهبية ، وأجال عينيه فى كل ما حواه من تُحف غالية ، وطرائفَ نادرة ، ثم قال : الآنَ يمكنُ أن نمضىَ فى رحلتنا إلى جزيرة السعُود، لعلّنا نوفّقُ إلى تحقيق رغبة الملك ! . .

٥

ركب صابر المركب ، وحطّ الغرابُ على ساريته الذهبية ؛ ثم نشر الملاّحون أشرعتَه ، فانطلق بهم فى البحر يشقُّ عُبابَ الماء ؛ ولم يزل سائراً أياماً ولياليَ ، حتى وصل بهم فى اليوم السابع إلى جزيرة كبيرة ، عظيمة الشجر ، كثيرة الثمر ، عَطرة الزهر ، تجرى خلالها الأنهار ، وتغردُ على أغصانها البلابل ؛ قد أقيمت على أرضها قصورٌ فخمة ، وقلاعٌ ضخمة ، وتماثيلُ متقنةُ الصنع . . .

فلما وقعت عينُ الغراب على هذه الجزيرة ، صاح قائلا : انظر

يا صابر ، هذه جزيرةُ السعود ، وملكتها هى صاحبةُ ذلك الطائر ، فاطلبْ إلى الملاَّحين أن يُرْسوا السفينةَ على الشاطئ ، حتى ندبر أمرَنا على ما نشاء ، لنحملَ الملكة معنا ونعودَ بها إلى الملك ! . . .

قال صابر : وكيف نستطيعُ يا صديقى أن نحملَ الملكة على الركوب معنا ، ثم نذهب بها إلى بلدنا ؟ . . .

قال الغراب : اتركْ الأمرَ لتدبيرى يا صابر ؛ فإنى أعرفُ هذه الجزيرةَ وأهلها وملكتَها ، وأعرف أن من عادة أهلها الفُضول ، فلا تكاد عيونهُم تقعُ على منظر غريب حتى يتزاحموا عليه ، ويتساءلوا عنه ؛ وسيرَوْن مركبنا هذا العجيب ، فيحضُرون إلى الشاطئ ليشاهدوه ، ثم يذهبون إلى ملكتهم يحدثونها بما رأوْا ؛ وسيُغْريها حديثُهم بالحضور إلينا ، لتشاهدَ بعينيها ما وصف لها أهلُ الجزيرة من عجائب محتويات المركب ، وطَرافة ما يحملُ من التحف ؛ فإذا حضرتْ فقد تحقق نصفُ ما أردنا ، ولا يحتاجُ الأمرُ بعد ذلك إلى تدبير عسير ! . . .

ولم يكد الغرابُ ينتهى من حديثه إلى صابر ، حتى كان المركبُ قد رسا على الشاطئ ، وقد لمعت تحتَ الشمس أشرعتُه الفضية ، وتوهَّجت صَوَاريه الذهبية ، وتراقصت أشعَّتُه فى عيون الغادين والرائحين من أهل الجزيرة ؛ فأسرعوا إلى الشاطئ ليرَوْا ذلك المركبَ العجيب ، فبَهَرهم ما فيه من تُحف وزينة ، وتَرَف وأبَّهة ، ثم عادوا إلى ملكتهم ليصفوا لها ما رأوا ؛ فاستعجبت الملكةُ أن يكونَ فى البحر مثلُ ذلك المركب العجيب ، وأرسلت بعضَ الخدم ليسألوا عن ذلك المركب ،

ويستقصوا أخبارَه ، ويتعرَّفوا وجهتَه ؛ ولكن صابراً لم يخبرْهم بشيء مما أرادوا ، وقال لهم : إذا كانت ملكتُكم تريدُ أن تعرف ، فلْتحضُرْ بنفسها لترى وتعرف ، وستجد من تكريمنا وإجلالنا ما يليقُ بمقامها العظيم ! . . .

فعاد الخدمُ إلى سيدتهم وأنبئوها بما سمعوا ، فلم تجدْ بُدًّا من الذهاب بنفسها إلى المركب ، تصحَبُها طائفةٌ من خدمها وجواريها ؛ وكانت الملكةُ شابَّةً جميلة ، أنيقةً رشيقة ، عليها مهابةُ الملوك ؛ فاستقبلها صابر استقبالا كريمًا ، وانحنى بين يديها إجلالا وتعظيمًا ؛ ثم دعاها للصعود إلى المركب ، فصعدت وحدها ، وتخلَّف خدمُها وجواريها على الشاطئ حتى تنتهيَ من زيارتها ؛ فأخذت تتنقلُ بين غُرُفات المركب معجَبةً مدهوشة مما ترى ، حتى بلغت غرفةَ الاستقبال ؛ فانحنى صابر بين يديها ، ثم قال لها : هل تأذنُ مولاتى بالجلوس لحظة ، لنقدمَ لها قدَحًا من الشاى ؟

فلبَّت الملكةُ دعوته ، واتخذت مقعداً فى الغرفة ، وأحاطت بها الوصائفُ يحيينها ويُبالغْنَ فى تعظيمها ؛ ثم مشَلت بين يديها وصيفةٌ جميلةُ الخلقة ، رشيقةُ الحركة ، تحملُ بين يديها صينيَّةً من الفضة عليها كأس من البلّور ، فقدَّمته إلى الملكة ، فأخذته الملكةُ شاكرة ، وأخذت ترشفُ منه مسرورة ؛ فما هى إلا رشفةٌ بعد رشفة ، حتى غلبها النعاس ، وخدَّرها الكأس ، فمال رأسُها . ثم غاب وَعْيُها ؛ فلم تدْرِ ماذا كان ، ولا كيف صار . . . . . .

وكان ذلك كله بتدبير الغراب ؛ فلم يكد يطمئنُّ إلى نجاح تدبيره، حتى قال لصابر : أسرعْ فقل للملاَّحين يحُلُّوا حبالَ المركب ، ويرفعوا المراسى ، ليُبْحروا عائدين إلى بلادهم . . .

فما هى إلا لحظات ، حتى كان المركبُ يشُقُّ عُبابَ الماء عائداً بالملكة ، وخدمُها وجواريها ينتظرون على الشاطئ ، لا يُحْدثون صوتًا ولا يحاولون حركة ؛ إذ ظنوا أن المركبَ لم يُبحرْ إلا بأمر الملكة ، لتجولَ به جَوْلَةً على سطح الماء ثم يعود ؛ ولكن الملكة لم تعُدْ ، لأنها ظلَّت فى نومها العميق ، لا تدرى ولا تُحسّ ، حتى ابتعد بها المركبُ عن الجزيرة ، وغاب منظرها عن العيون . . .

٦

استمر المركبُ سابحًا على سطح الماء أيامًا وليالى ، والملكةُ لا تدرى أين يذهبون بها ؛ فلما كان اليومُ السابع ، مَثَل صابرٌ بين يديها ، فلم تكد تُراه حتى صاحت به غاضبة : أيها الفتى المحتال ، كيف تجرُؤُ على الإبحار بى على ظهر مركبك بلا إذن منى ؟

فانحنى صابر بين يديها وقال لها : معذرةً إليك يا مولاتى ، فإنى لم أفعلْ ذلك إلا مُكرَهًا ، لأنقذَ حياتى ؛ فهل تأبَيْنَ أن تُساعدى فتى مثلى على النجاة من الموت ؟

قالت الملكةُ وقد خفَّ غضبها : ولكنى لا أفهمُ كيف يكون اختطافى سببًا لنجاتك من الموت ! . . .

فقص عليها صابرٌ قصةَ الطائر الذى أهداه إلى الملك ، والقصر الذى بناه له من العاج ، والأمر الذى أمره إياه ليبحثَ عن صاحبة الطائر ويحضرها إليه ، وإلا كان جزاؤه القتل ؛ فلم تكد الملكة تسمعُ ذلك ، حتى تذكرت الطائرَ الذى فَقَدَتْه منذ حين ، وخَمَّنت أن يكون هو الطائرُ الذى أهداه صابرٌ إلى الملك ، فاشتاقت إلى أن تراه وتسمعَ تغريده ، وزادها شوقًا إليه ، ما سمعته عن قصر العاج الذى بناه له صابر ؛ فازدادت هدوءاً ولطفًا ، ثم قالت : لقد ارتكبتَ سيئةً كبيرة يا فتى ، ولكنى أغفرُها لك إشفاقًا عليك ؛ فسأذهبُ معك إلى بلادك ، لأنقذَك من بطش الملك ، ولكنى لا أريدُ أن أمكثَ فى دياركم إلا يومًا واحداً ، ثم أعودَ بعده إلى بلادى !

قال صابر مبتسماً : الأمر لك يا مولاتى ، وسيرسو المركبُ على شاطئ بلادنا فى صباح الغد ، وسيستقبلُك الشعبُ والأمراءُ استقبالا يليقُ بمقامك ، ويصحَبونك إلى قصر الملك فى احتفال عظيم ، ويظلُّ المركبُ فى الميناء رهنَ إشارتك ؛ لتعودى إلى بلادك الجميلة حينما تشاءين ! . . . .

اطمأن قلبُ الملكة وذهب ما بها من الغيظ ، وأخذت ترقُبُ الشاطئَ البعيدَ مشتاقةً إلى رؤية طائرها الجميل ؛ فلما كان صباحُ الغد ، رسا المركبُ على الشاطئ ، فخفَّ الشعبُ والأمراءُ لاستقبال الملكة فى احتفال عظيم ، وجاء الملكُ فصَحبها فى مهرجان فخم إلى قصر العاج ؛ فلم تكد عينُ الملكة تقعُ على طائرها الحبيس فى قفصه ،

حتى أسرعت إليه مشتاقة ، تُناغيه بأعذب الكلام ؛ ورأى الطائرُ صاحبتَه وسمع نداءها ، فانحلت عقدةُ لسانه ، وأخذ يغردُ تغريداً عذباً مُطرباً لم تسمع الأذن أجمل منه ؛ فطَرب الملكُ والأمراءُ طرَباً عظيماً ، وسرّهم ما رَأوا وما سمعوا أعظمَ السرور . . .

وكان سرورُ الملك برؤية الملكة أعظمَ من كل سرور ناله فى حياته ؛ فقد رأى فيها جمالا وكمالاً ورقّةً لم يرَ مثلَها فى أحد من الناس ؛ فلما علم بعزم الملكة على العودة إلى بلادها بعد يوم واحد ، توسل إليها أن تبقى فى ضيافته أياماً ، حتى تستريحَ من متاعب الرحلة ؛ فلبّت الملكةُ دعوته ، وفى نيّتها ألا تبقى أكثرَ من ثلاثة أيام ، ولكنها قبل أن يمضى يومان كانت أكثرَ من الملك رغبةً فى البقاء ؛ فقد وجدت من الأنس والبهجة ما أنساها جزيرةَ السعود وكلَّ ما فيها من الترف والنعمة . . .

ولم يمض إلا أيامٌ بعد ذلك ، حتى اتفق الملك والملكةُ على الزواج ، ليعيشا معاً سعيدَين مدَى الحياة ؛ فارتفعت بذلك مكانةُ صابر وزاد حُظْوَةً لدى الملك ، حتى أنعم عليه بلقب الأمير ، فصار له فى القصر جاهٌ ورياسةٌ وأمرٌ نافذ . . .

وذات يوم أصبحت الملكةُ مريضةً لا تقوَى على الحركة ، فدعا الملك كبارَ الأطباء ليعرفوا علتها ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الاهتداء إلى الداء ودوائه ، وأخذت صحةُ الملكة تزدادُ كل يوم سوءاً حتى أشرفت على الموت ؛ فحزن الملكُ لما أصابها حزناً شديداً ، وكلما رأى

أنه لا يملكُ حيلةً لدفع الشر عنها اشتد به الحزن حتى كاد يمرض مثلها . . .

وكان مقاعس الشرير ، يرقُبُ الحالةَ فى القصر ، والحقدُ يملأُ قلبَه على صابر ، بسبب ما ناله من الجاه والحُظوة ؛ فلما اشتد المرضُ على الملكة وأشرفت على الموت ، رأى الفرصةَ سانحة لتدبير مكيدة جديدة ، ثم لم يلبث أن اهتدى إلى تدبير خبيث ، حين تذكَّر أن صابراً إنما جاء بالملكة من جزيرة السعود على غفلة من أهلها ؛ فأراد أن يحتالَ حيلةً تحملُ الملكَ على إرساله مرةً أخرى إلى تلك الجزيرة ، حتى إذا ما رآه أهلُها وعرفوه ، انتقموا منه وقتلوه شرَّ قِتلة ، جزاءَ اختطافه لملكتهم المحبوبة . . .

ولم يكد مقاعسٌ ينتهى إلى تدبير الأمر على هذا الوجه ، حتى قصد إلى الملك فقال له : يا مولاى ، لقد استمعتَ إلى مشُورتى من قبل ورأيت حُسْنَ عاقبتها ؛ وإنى أشيرُ عليك اليومَ برأى أرى فيه شفاءَ الملكة من دائها بإذن الله !

قال الملك ملهوفًا : بماذا تشيرُ يا مقاعس ؟

قال : أرى أن ترسلَ خادمك صابراً إلى جزيرة السعود ، لعله أن يجدَ هنالك دواءً للملكة . . . . . .

٧

ودعا الملك صابراً إليه ، وقال له : أستَحْلفُك يا بنىَّ بحقى عليك ، وبحقِّ الملكة المحبوبة ، أن تساعدنى فى البحث عن دواء للملكة ، قبل

أن يفترسَها المرض !

قال صابر : مُرْنى يا مولاى بما تشاء ، فأنا طَوْعُ أمرك ورَهْنُ مَشيئتك !

قال الملك : إننى أريدُك يا بنىَّ أن تُبحرَ منذ الساعة إلى جزيرة السعود ، فتبحثَ هنالك عن الدواء الذى يشفيها !

قال صابر : جزيرة السعود ؟ إنهم يقتلوننى هنالك إذا رأوْنى ؛ فقد عرفوا أننى أنا الذى خطَفت مليكتهم المحبوبةَ ، وفرَرْت بها إليك ؛ فهل يهونُ عليك يا مولاى أن يقتلونى ؟

قال الملك بحزم : لا تحاولْ معذرةً يا صابر ، فقد علمتَ أنه لا أحدَ غيرَك يقدرُ على هذه المهمَّة ؛ وقد صَدقَنى مقاعس فى مَشورته مرتين ، وهذه ثالثة ؛ فإن فعلتَ ما أمرتُك به ... وإلا قتلتك !

ولم يكن صابر يعلم قبل هذه اللحظة ، أن مقاعسًا هو الذى يدبر له هذا الكيد ؛ فلما سمع ما قاله الملك ، انقشَعَت الغشاوةُ عن عينيه ، وعرف أن كبيرَ الخدم لا يريدُ إلا موته ، ليخلوَ له وجهُ الملك ؛ فأطرق يفكرُ هُنَيْهَة ، ثم رفع رأسه قائلا : فليكنْ ما أراد الله ، وسأحاول يا مولاى أن أنفذَ أمرك ، فأذهبَ إلى جزيرة السعود لأبحثَ عن دواء الملكة ، ولو بذلت فى ذلك حياتى !

فلما خلا صابر إلى نفسه ، أرسل الريشةَ الثالثةَ فى الهواء ، فظهر الغرابُ فى الجو يرفرفُ بجناحيه ؛ فقال له صابر واليأسُ مرتسمٌ على جبينه : أنقذْنى يا صديقى ، فإن الموتَ فى هذه المرة يتربَّصُ

بى إن أطعتُ وإن عصيت !

ثم أخبر الغرابَ بما طلبه الملك ، وطلب معونته ؛ فلم يكد الغرابُ يسمعُ قوله ، حتى انتفض انتفاضةَ الخوف ، ثم قال : إن الأمرَ عصيبٌ جداً فى هذه المرة يا صديقى ، ولكنى لا أستطيع أن أتخلَّى عن معونتك!

ثم سكت الغراب برهة وعاد يقول : وإن لى مصلحةً على كل حال فى نجاة الملكة من الموت ، فسأشاركُك فى المخاطرة حتى نُحضرَ لها الدواءَ من جزيرة السعود ، وإلا قُضى علىَّ وعليك وعلى الملكة جميعاً!

ازداد صابر همًّا وقلقاً حين سمع حديثَ الغراب ؛ وإن لم يفهمْ شيئاً مما يعنيه ، فهمَّ أن يستوضحَه ، ولكن الغرابَ قاطعه قائلا : إن الأوانَ لم يَحِنْ بعد لتعرفَ كلَّ شىء ؛ والوقتُ أمامنا ضيق ، فلْنبدأ العملَ منذ الآن ، قبل أن يضيعَ الوقتُ فنهلك جميعاً . . . اسمع يا صابر : إن المركبَ لم يزل فى الميناء ، وقد عرفتَ الطريقَ إلى جزيرة السعود ، فانشُرْ قلاعَك واذهبْ على بركة الله ؛ وسأسبقُك إلى هنالك ، لأذيعَ فى طول الجزيرة وعَرضها أن الملكة سعيدةٌ كلَّ السعادة ، وأنها مدينةٌ بسعادتها للفتى الشجاع ، الذى حملها فى مركبه العجيب إلى بلاده ؛ فإنهم إن سمعوا ذلك سيزول من نفوسهم كلُّ أثر للحقد عليك ، فإذا رأوْك بعد ذلك فلن ينالوك بسوء ؛ ولكنك لا تكاد تُرسى مركبَك فى الميناء ، حتى ترى على باب الجزيرة أسدين مخيفين ، قد تهيَّأ كلٌّ منهما لافتراس أى غريب وافد على الجزيرة ؛ فإذا أردت أن تنجُوَ من براثنهما ، فانظرْ إلى جناحى الأيمن ، فسترى ريشةً فضية ، فانتزعْها ،

ثم احتفظْ بها لوقتها ؛ فإذا رأيت الأسدين هاجمَين عليك فالمسْهما بتلك الريشة ، يرتدّان بعد العُنف والشَّراسة إلى الهدوء والدَّعَة ، فاتركهما وامض فى طريقك حتى تبلغَ قصرَ الملكة ، وسترى هنالك كلَّ شىء مهيأ لما تريد . . .

قال الغراب هذا ، ثم بسط جناحه ، فرأى صابر ريشةً فضيةً تلمع بين الريش ؛ فانتزعها ، ثم أطبق عليها كفه ، ونشر قلاعَه وحوَّل الدَّفَة نحو جزيرة السعود . . .

ولم يزل المركبُ سابحًا على وجه الماء أيامًا وليالى ، حتى أشرف فى اليوم الثامن على الجزيرة ، فأخذت سرعته تخفُّ رُويداً رويداً حتى رسا على الشاطئ ؛ فربط صابر حبالَه فى المرساة ، ثم هبط إلى أرض الجزيرة ؛ فلم يكد يخطو خَطوتين نحو الباب ، حتى رأى أسدين مفترسين يقتربان منه ، ولهما زئير يُصمُّ الآذانَ ويخلعُ القلوب ؛ فتراجع صابر مذعوراً حتى كاد يسقُط فى الماء ، ولكنه لم يلبَثْ أن تذكر الريشةَ الفضية ، فاستجمع شجاعتَه وأقبل عليهما ، ثم لمسهما بالريشة ، فعادا بعد العنف والشراسة إلى هدوء عجيب ، كأنهما قطان كبيران لا أسدان من أشرس الأسود . . .

٨

اجتاز صابر الجزيرة آمنًا ، ومضى فى طريقه إلى قصر الملكة ، لا يكادُ يعرضُ له أحدٌ بسوء ؛ فلما بلغ باب القصر دُهش رجالُ

البلاط ، حين رأوا رجلا غريبًا قادمًا عليهم ، وعجبوا له كيف نجا من الأسدين اللذين يحرُسان الباب ؛ فأقبلوا عليه يسألونه ، فأراهما الريشةَ الفضية التى انتزعها من جناح الغراب ، وقال لهما : بهذه الريشة لمست الأسدين فهدآ بعد شراسة !

فاستعجب الرجالُ غاية العجب ، وأكبروا همةَ صابر وشجاعته ، ثم سألوه عن مقصده ؛ فقال لهم : إنما جئت لأبحثَ عن دواء للملكة المريضة .

فألَمهم أن ملكتَهم مريضة ، وصحبوه إلى طبيبها الخاص ، وأنبئوه نبأه ! فقال الطبيب فى حزن : لقد عاودها داؤها إذن ! وإنه لَمنٌ حسن الحظ أنك حضرت إلينا لتبحثَ عن دوائها ، فإنه دواءٌ لا يعرفُه غيرى من الأطباء ، ولم يزل عندى قارورةٌ منه !

ثم غاب الطبيب برهة ، وعاد يحملُ قارورةً صغيرةً لا يزيدُ طولها على إصبَع ، فدفعها إلى صابر وهو يقول : فى هذه القارورة دواءُ الملكة وحَسْبُها منها جُرعةٌ واحدة !

ثم طلب إلى صابر أن يأذَنَ له فى الذهاب معه ؛ ولكن صابراً شكره وانصرف وحده ، مُتجهًا نحو الميناء ، ثم أبحر إلى بلاده ؛ فلم يكد يُرسى مركبَه على الشاطئ ، حتى أسرع إلى قصر الملك وفى يده قارورةُ الدواء . . .

وكان المرضُ قد اشتد بالملكة حتى غابت عن الوعْى ، وفقدت الحركة ، ورفرف الموتُ عليها بجناحيه ؛ وفى تلك اللحظة وصل صابرٌ

إلى القصر ، فاستقبله الملكُ بلهفة ، ثم أسرع بالدواء إلى الملكة فى سريرها فصبَّ بين شفتَيها جُرعةً منه ؛ فلم تكد تستقرُّ فى جوفها حتى تحركت ، ثم فتحت عينيها ؛ فاستبشر الملك ، وضمَّ صابراً إلى صدره وأخذ يقبلُه كالمجنون ، ودموعُ الفرح تجرى على خدَّيه ؛ وكان الغرابُ يرفرفُ بجناحيه فى تلك اللحظة على كلَّة السرير ، فرفعت الملكةُ إليه عينيها وقالت : أمينة ؟ ماذا جاء بك الآن يا أمينة ؟ وأين كنت ؟

ولم يكن أحدٌ بالغرفة غيرُ الملك ، وصابر ، فلم يعرفا إلى مَنْ تتحدث الملكة ، وظنَّا أنها تهذى ؛ ولكنهما لم يلبثا أن سمعا صوتًا آتيًا من ناحية الغراب يقول : الحمد لله على سلامتك يا مولاتى ! فهلا عفَوْت عنى فى هذه اللحظة ، تقربًا إلى الله بالإحسان ، وشكراً له على نعمة الشفاء ؟ وعرف الملكُ وصابرٌ فى تلك اللحظة ، أن ذلك الغرابَ الذى يرَيانه ويسمعان حديثَه ، ليس غرابًا من الأغربة ، ولكنه إنسانةٌ من البشر . ثم قالت الملكة : نعم يا أمينة ، قد آن أن أعفُوَ عنك يا صديقتى الشقيَّة ، وأردَّك إلى إنسانيَّتك ، ولكن بعد أن تتوبى ، وتُنيبى ، وتعتذرى من كل ما كان منك !

قال الغراب فى صوت نسائى عذب : إن ذنبى لم يكن كبيراً يامولاتى وقد تبت منه ، وأنبتُ ، واعتذرتُ من كل ما كان ؛ فردينى إلى إنسانيَّتى ، ردَّ الله إليك العافية !

قالت الملكة : ولكنك ، أيتها الشقيّة ، لم تقدمى برهانًا واحداً

على توبتك وإنابتك وندمك ، وأخشى أن تعودى إلى ما كنت فيه من العبث والعصيان !

قال الغراب فى صوته النسائى : حَسْبى برهانًا يا مولاتى ، أننى أنا التى ساعدت هذا الفتى الشجاعَ على إحضار الدواء لك ، كما هيَّأت لك من قبلُ فرصةَ السعادة ، إذ حضرت بك من جزيرة « السعود » ، لتسعَدى بالزواج من هذا الملك الكريم ! ومن قبل ذلك هيَّأت الفرصةَ لطائرك المحبوب ، كى يعيشَ فى قصر من العاج فى رعاية ملك عطوف ؛ فهل يكفى ذلك كلُّه لتغفرى لى ؟

قالت الملكة : قد غفرتُ لك يا أمينة ، والحقُّ أنك لم تأتى ذنبًا كبيراً ، وإنما كانت هفوةً صغيرةً حملتنى على الغضب ، فتسرَّعت بالحكم عليك وحوَّلتك إلى غراب . . .

والآن قد آنَ الأوانُ يا أميرتى الصغيرةَ لتعودى إلى إنسانيتك ، وإلى شبابك وجمالك وفتنتك . . .

ثم استوت الملكة فى فراشها ، ومدت يدها إلى الغراب فمسَّت رأسه ، وأخذت تحرك شفتَيها بكلمات ، ثم أخرجت من صدرها زجاجةً صغيرةً قَطَرت منها قطرات على وجهه ؛ فما هى إلا غمضةُ عين حتى تحول الغرابُ الأسودُ إلى فتاة جميلة ذات سحر وبهاء ؛ فأقبلت على الملكة تشكرُها ودموعُ الفرح تقطُرُ على خدَّيها !! ....

حدث ذلك كلُّه فى لحظات كأنه حُلْمٌ نائم ، الملكُ وصابرٌ واقفان يشهدان، لاتكاد تطرفُ منهما عين أو يتحركُ منهما لسان ...

وفى اللحظة التى تم فيها ذلك ، التفتت الملكة نحو الملك وصابر وهى تقول : أقدِّمُ إليكما بنتَ عمى : الأميرة أمينة !

وكان الملكُ وصابرٌ قد عرفا قصةَ الفتاة كلَّها ، مما جرى من الحديث بينها وبين الملكة ، فلم يبقَ فى الأمر سرٌّ يدعوهما إلى سؤال . . .

ولكن شفتَىْ صابر كانتا تختلجان ، كأنه يريدُ أن يقولَ شيئًا ثم لا يستطيع ؛ فابتسمت الملكة وقالت : إننى أعرِفُ ماذا تريدُ أن تقولَ يا أمير ، وهو ما كنت أريدُ أن أقولَه قبلَك ، ويريدُ أن يقولَه الملك كذلك . . . ألست تريد أن تكونَ الأميرةُ أمينةُ زوجتَك ؟

فاحمر وجهُ الفتىّ خجلا ولم يُجبْ . . .

وما هى إلا أيام ، حتى زُفَّت أمينةُ إلى صابر ، وعاشا بعد ذلك فى سعادة متصلة ، وهناء مقيم .

أما مقاعس الشرير ، فقد اختفى عن العيون منذ ذاعت هذه الأنباء ، فلم يقفْ له أحدٌ على خبر !

المغامر الصغير

١

جلس « عصمت» على مقعده ، تحت عريش الكرْم ، فى الحديقة الكبيرة التى تُحيطُ بدار أبيه ، وبين يديه كتابٌ صغيرٌ أنيق ، أهداه إليه صديقُه « كوزياك » . . .

وكان الكتابُ مبسوطًا تحت عينيه ، ولكنه لم يكن يقرأ منه شيئًا ؛ لأن أفكارَه كانت سارحةً فى مناطقَ بعيدة ، ذات مناظرَ جميلة ، يتخيَّلُها كأنه يراها ، وإن لم تقعْ عيناه عليها فى يقظة ولا فى منام . . .

وكان عصمت فتًى تركيًّا ، من أهالى إستنبول ، لا تزيدُ سنُّه على الرابعةَ عشرة ؛ ولكنه كان مغامراً ، جريئًا ، ولوعًا بالرحلات ، يركبُ فى سبيلها المخاطرَ والأهوال ، بلاخوف ولا حذر ؛ وقد زار كثيراً من البلاد ، وطوَّف فى كثير من الأقطار ، واطَّلع على كثير من أحوال الأمم والشعوب ، ووَطئَتْ قدماه مناطقَ كثيرةً مجهولة ، لم تطأها قبله قدمُ صبى مثله ؛ ولكن ذلك كلَّه لم يُشبعْ رغَباتِه ، أو يُطفئ فى نفسه شُعلةَ الشوق الدائم إلى الرحلة ، ليزورَ بلاداً أخرى جديدة ، ويجوبَ مناطقَ أخرى مجهولة . . .

وقد ساعده على تحقيق كثير من رغباته ، أن أباه كان مديراً

لإحدى شركات الطيران المَدنىّ ؛ فكثيراً ما كان يصحب بعضَ الطيارين فى رحلاتهم إلى المناطق القريبة والبعيدة ، ثم يعودُ مسروراً سعيداً بما حصل عليه من المعلومات الجديدة عن الناس والبلاد . . .

بل لقد كان هو نفسُه طياراً بارعًا ، فقد تَمرَّن ساعات كثيرة على قيادة الطائرات ، وعلى التحليق بها فى الجو ، وعلى الطيران بها مسافات غير قليلة ، فى رعاية مهندسى الشركة التى يُديرها أبوه . . .

وقد تعرَّف عصمت منذ بضعة أسابيعَ على صديق جديد ، هو كوزياك ؛ فأعجب كل منهما بصاحبه ، ومنحه إخلاصَه ومودَّتَه ؛ فصارا يَقضيان كلَّ أوقاتهما معًا ، يشتركان فى الحديث ، أو فى اللعب . أو فى الرحلات الصغيرة إلى الغابات والبوادى والشواطئ ؛ فلم

تلبث أن توثقت بينهما الصلةُ كأنهما أخوان شقيقان . . .

ولم يكن كوزياك تركياً مثل عصمت ، ولكنه كان فتىً من أهل الشمال ، نشأ فى بلاد الإسكيمو الباردة ، حيث يغطى الجليدُ وجهَ الأرض طول العام ، وتحتجب الشمسُ عن العيون أشهراً ، فلا ترسلُ ضوءاً ولا دفئاً ولا تميزُ ليلا من نهار . . .

وكان أبو كوزياك قد رحل من بلاده منذ سنينَ بعيدة ، واستقرّ فى مدينة إستنبول ، واتخذها وطناً ثانياً ، ولكنه لم ينسَ بلادَه ولا لُغتَه ولا عادات قومه ؛ وكذلك كان ولدُه كوزياك ، فقد كان يعرفُ لغةَ الإسكيمو كما يعرف اللغةَ التركية ، وكان مثل أبيه يحافظُ على كثير من عادات أهله وبلاده ؛ فلما تعرّف إلى عصمت ، أخذ يحدثُه عن تلك البلاد البعيدة ، الواقعة فى أقصى الشمال ، والتى يعيشُ أهلُها فى بيوت منحوتة من الجليد ، يأكلون لحمَ الدببة ، ويُشعلون مصابيحَهم بدهنها ، وليس عندهم فى السنة إلا ليلٌ واحدٌ ونهارٌ واحد . . .

فلما سمع عصمت هذه الأنباءَ عن تلك البلاد ، رغب فى رؤيتها ، والرحلة إليها ؛ وشجّعه صديقُه كوزياك على هذه الرغبة ، ليَصحَبَه فى رحلته ، ويعرفَ بلاد قومه ؛ ومن أجل ذلك أهدى إليه كتاباً صغيراً أنيقاً ، فيه كثيرٌ من المعلومات الطريفة عن تلك البلاد . . .

وها هو ذا عصمت ، جالسٌ على كرسيه تحت عريش الكَرْم ؛ فى الحديقة الكبيرة التى تحيطُ بدار أبيه ، وبين يديه ذلك الكتاب ؛

ولكن أفكارَه سارحةٌ فى تلك المناطق البعيدة ، ذات المناظر الجميلة ، التى حدَّثه عنها صديقُه كوزياك ، يتمنى أن تُتاحَ له الفرصةُ لزيارتها ، والتمتع برؤيتها رأىَ العين ، كما عرفها معرفةَ السماع . . .

فبينما هو جالسٌ على كرسيه ذاك ، إذ جاء أبوه ، فقال له : فيم تُفكرُ يا ولدى العزيز ؟

قال عصمت : إننى أفكرُ يا أبى فى رحلة إلى بلاد الإسكيمو ، مع صديقى المخلص كوزياك ، لأزدادَ علمًا بالحياة وبالناس .

فضحك أبوه ، وأسند يدَه على كتفه وهو يقول له : يا لَلك من مغامر صغير يا عصمت ! وماذا يُفيدُك يا بنىَّ أن ترى تلك المناطقَ النائية ، وقد رأيتَ بلاداً أكثرَ منها جمالا وأحسن مناظر ؟

قال عصمت : ولكنها يا أبى جزءٌ من الدنيا التى نعيشُ على ظهرها ، ولن تكلفَنى الرحلةُ إليها شيئًا ، إلا أن تأذنَ لى فى اتخاذ طائرة ، أطيرُ بها إلى هنالك مع صديقى كوزياك ، ثم نعودُ بعد يوم أو يومين .

قال أبوه جادًّا : دَعْ عنك هذه الفكرةَ الآنَ يا عصمت ؛ فإنى أخافُ عليك عاقبةَ هذه المغامرة .

وفى تلك اللحظة ، قدم عليهما طيَّارٌ شابٌّ من طيَّارى الشركة ، كان يعطفُ على عصمت ويُعجَبُ به ؛ فلما عرف ما كان يدورُ من الحديث بين الفتى وأبيه ، قال للأب وهو ينظرُ بعطف إلى عصمت : إننى يا سيدى المدير ، على استعداد لصحبة عصمتْ وصديقه فى هذه الرحلة ، إذا أذنتَ لى أن أقودَ لهما الطائرة ؛ ولعل ذلك أن يبعثَ فى

نفسك كلَّ الاطمئنان عليه ! . . .

وكان هذا الطيَّارُ من أبرع طيَّارى الشركة ، وأكثرهم خبرةً وفنًّا وحيلة ؛ فوافق الأبُ على اقتراحه ، وأذن له أن يطيرَ بعصمت ومن يشاءُ أن يصحبَه من أصدقائه ، فى رحلة إلى بلاد الإسكيمو ، على ألا تستغرقَ هذه الرحلة أكثرَ من يومين . . .

٢

تهيَّأ الطيَّارُ « سراجٌ » للرحلة إلى بلاد الإسكيمو ، مع عصمت ، وكوزياك ، ومن يشاءُ أن يصحبَهما من الأصدقاء ؛ وكان فرحُ عصمتْ عظيمًا بهذه الفرصة التى تُتيحُ له أن يعرفَ بلاداً جديدة ، ويرى عادات غريبة ، ومناظرَ غير مألوفة ؛ فأعدَّ عُدتَه ، وأنبأ صديقه كوزياك ليستعدَّ مثلَه ، كما دعا رفيقين من أصدقائه ليصحبَاهما ؛ فقبلا الدعوةَ مسرورَين كذلك ، وتهيَّأ الجميعُ للرحيل . . .

وحلَّقت بهم الطائرةُ فى سماء إستنبول ، ثم عبرَتْ بهم البحرَ المتوسط ، حتى صارت فوقَ المحيط ، ثم اتجهتْ نحوَ الشمال الشرقى ؛ فلما صارت على بُعد قليل من مدينة « دوش » من بلاد الشمال المتجمد ، اكفهرَّ الجوُّ فجأة ، وتكاثفت السحب ، وهبَّت رياحٌ عاصفة ، تحملُ ذرَّات من الثلج ، كما تحمل رياحُ البادية ذرات الرمال وتدورُ بها فى الفضاء ؛ فملأت ما بين السماء والأرض بهذه الذرَّات البيضاء المتطايرة ؛ فتعذَّر على الطيَّار سراج أن يرى شيئًا مما حواليه ، ولم يستطعْ أن يمضىَ إلى

أمام ، ولا أن يرجعَ إلى وراء ، مخافةَ أن يصطدمَ بجبل من جبال الثلج ، فتتحطمَ طائرتُه ويهلكَ هو ومن معه ؛ وملأ الخوفُ قلوبَ ركّابه الصغار ، وهم يرَوْن هذه العاصفةَ الثلجيةَ تدورُ بهم وتقطعُ عليهم طريقَهم ؛ ولكن الطيّار الجريءَ لم يَخَفْ ، ولم يستَوْل عليه اليأس ، وأخذ يتحسّسُ طريقَه نحو الشمال ببطء شديد ، حتى ينجُوَ من شر تلك العاصفة . . .

وكان الطيارُ قد أعدَّ خُطتَه على أساس الهبوط فى مطار مدينة « دوش » ، ليتزوّدَ بالوقود ، ثم يستأنفَ رحلتَه نحو الشمال ؛ ولكن هذه العاصفةَ المفاجئةَ غيّرتْ خُطتَه ، فكان كلُّ همِّه فى تلك اللّحظات الحرجة ، أن يلتمس أىَّ طريق يخرجُ به من هذا الضّباب المتكاثف حواليه ، لينجوَ بنفسه ، وبرُكابه ، وبطائرته ، من هذا الخطر ولكن منطقةَ الضباب كانت كبيرة ، وممتدةً من كل ناحية إلى مسافات بعيدة ؛ فرأى أن يتصل بجهاز الطائرة اللاسلكى بمطار دوش ، ليعرفَ أينَ هو ، وأىَّ طريق يسلُكُ إلى المطار ؛ ولكنه لم يلبَثْ أن عرف أنه قد ابتعدَ كثيراً عن المطار ، وأمعن كثيراً فى الاتجاه نحو الشمال ؛ وكان صوتُ العاصفة ، وبُعْدُ المسافة ، وذَبْذَباتُ الرّياح ، تحُولُ بينه وبين الاتصال بالمطار . .

وظلت الطائرةُ تدورُ بركابها وَسْطَ هذا الضباب المتكاثف ، حتى أوشك وَقودُها أن ينفَد ؛ فأخذ الطيار يفكرُ فى وسيلة للهبوط ، قبل

أن ينفد ما فى خزّانها من زيت الوقود . فتهوى إلى الأرض . . .

وفجأةً سكنت الرياح ، وهدأ الجو ، وارتفع الضباب ، واستطاع الطيارُ أن يرى ما تحته ؛ ولم يكن فى خزان الطائرة إلا قطراتٌ قليلة من زيت الوَقود ، فأخذ الطيارُ يهبطُ بالطائرة هبوطًا بطيئًا ، حتى مسّت عجلاتُها الأرض ؛ ولكنّ الطائرات حين تهبطُ لا تستقرُّ فى مكانها ، بل تدورُ دَوْرات سريعةً فى متّسَع كبير من الأرض ، قبل أن تَبطُل حركتُها ؛ فلم تكد الطائرةُ تسيرُ بضعةَ أمتار على الأرض ، حتى ارتطمَتْ بتل ثلجىّ ، فأحدثت دَويًّا مُفْزعًا يخلعُ قلوبَ الشجعان ؛ ولم يلبثْ الطيارُ والأصدقاءُ الأربعةُ أن تبيّنوا أن الطائرةَ قد فَسَدتْ ، فقد تحطّم أحدُ محركَيْها ، كما تحطّم جهازُ اللاسلكى بها ؛ ولكنهم حمدوا اللهَ على نجاتهم من الموت ! . . .

٣

ولما صفا الجوُّ وراق ، استطاع الأولادُ أن يروا المكان الذى هبطوا فيه مُكرَهين ؛ فإذا هم فى صحراءَ واسعة من الجليد ، ممتدة من جميع الجهات إلى ما لا ترى العين ؛ فأخذوا يفكرون فى أمر أنفسهم قَلِقين ، لا يدرُون ماذا يكون مصيرُهم فى هذا القَفر الأبيض . . .

وبينما هم فى قَلَقهم وحَيْرتهم ، بدَت لهم على بُعد ساريةُ سفينة ، فأيقنوا أنهم على مقربة من البحر ؛ ولكنهم قبل أن يفكروا فيما يصنعون ،

سمعوا أصواتًا تقترب منهم ، ثم ظهر لهم من بين الآكام الثلجية . جماعة من الإسكيمو ، مسلّحون بالنبال والسكاكين ، يقتربون منهم رُويداً رويداً ، وفى عيونهم شر وشَرَرٌ يتطاير ! . . .

تلاصَقَ الأولادُ مذعورين ، وأعادوا النظر نحو البحر ، ولكن السفينةَ التى كانت تبدو لهم ساريتُها من بعيد ، كانت قد اختفتْ كأن لم تكن ؛ ولم يبق معهم فى هذا القَفْر الأبيض إلا هؤلاء الرجالُ المسلحون ، يقتربون منهم فى حَذَر ، وهم لا يملكون وسيلةً من وسائل الدفاع عن أنفسهم . . .

واستطاع عصمت أن يحصىَ عددَ هؤلاء الرجال وهم قادمون من بعيد ، فإذا هم واحدٌ وعشرون رجلا ، طوالٌ ، ضخام ، عراضُ الأكتاف ، ليس مثلهم أحدٌ من رجال الإسكيمو فى الطول والضخامة وامتلاء الأجسام ؛ فقال لنفسه قلقًا : ماذا يظُنون بنا يا تُرَى ، وأىّ شىء يريدونه منا ؟

وكان مثلُ هذا السؤال يدورُ فى خاطر كل واحد من أصدقائه ، وفى خاطر الطيار سراج ، ولكنهم جميعًا لم يستطيعوا جوابًا ... ...

وبدا الموقفُ حَرِجًا ، والخطَرُ ماثلاً يتهدّدُ حياتَهم جميعًا ...

ولكن كوزياك كان يعرفُ جيداً عادات الأهالى فى هذه البلاد ، فتقدم بشجاعة نحو أولئك الرجال ، وألقى البندقيةَ التى كانت فى يده على الأرض ، ورفع يديه إلى رأسه وهو يقول بلغة الإسكيمو : نحن أصدقاء ، لا نريدُ بكم شرًّا ، وليس معنا سكاكين !

وقد أثبت كوزياك بهذا القول وذاك العمل ، أنه عارفٌ بحقيقة عادات تلك البلاد ؛ فلم يكد الرجالُ يرَوْن فعلَه ويسمعون قولَه ، حتى بدت فى وجوههم أماراتُ الرغبة فى التفاهم ، فأحاط بعضُهم بكوزياك يحدثونه ويستمعون إليه ، أما الباقون فوقفوا حذِرين ، يرقبون حركات سائر الأولاد وفى نفوسهم شكٌّ وقلق . . .

استمر الحديثُ بين كوزياك ورجال الإسكيمو برهةً غير قصيرة ؛ ثم صمتوا ، وظهرت على وجوههم أماراتُ الهدوء ، كأن اتفاقًا قد تم بينهم وبين كوزياك ؛ ثم اقترب منه أطولُهم قامةً وأكثفُهم لحية ، فألقى حربتَه على الأرض بين يدَىْ كوزياك وهو يقول : نحن أصدقاء ، وليس معنا سكاكين ، واسمى « ناجوك » . . .

ثم اتجه رجالُ الإسكيمو نحو سائر الأولاد ، فأسرع كوزياك لإرشاد زملائه قائلا : إياكم أن تصافحوهم بالأيدى ، فإذا اتجهوا إلى أحدكم بالحديث ، فما عليه إلا أن يذكر اسمه ، ثم يقول : « إننى صديق ، وليس معى سكين ! » ، فإن هذه هى علامةُ المودة عند الإسكيمو . . .

نفَّذ الأولادُ ما أمرهم به كوزياك ، وتم التفاهمُ بين سائر الأولاد وسائر رجال الإسكيمو ؛ ثم وقف ناجوك زعيمُ الإسكيمو فخطب خُطبةَ ترحيب بليغة ، لم يفهم الأولادُ منها حرفًا واحداً ، ولكن كوزياك فهمها كلها ؛ وبعد أن انتهى الزعيمُ من خطبته ، اتَّجه الرجالُ نحو قريتهم ، وسار الأولادُ وراءهم على بُعد غير قليل ، كما أمرهم ناجوك ؛

إذ كان يخشى لو سارَ الأولادُ وراءهم مباشرة ، أن ينتهزوا فرصةً فيغدروا برجاله ويطعنوهم من الخلف بالسكاكين ؛ وكان هذا التفكيرُ فى نفس الزعيم ، دليلاً على أن نفوس القوم لم تَصْفُ صفاءً تامًّا ، وأنهم ما يزالون خائفين من غدر أولئك الأولاد ؛ وكذلك كان الأولاد خائفين من غدر رجال الإسكيمو . . .

ولم يزل الرجالُ سائرين ، والأولادُ يتبعونهم خائفين حذرين ، حتى بلغوا أولَ القرية التى يسكنها رجالُ الإسكيمو ؛ وهى قريةٌ مكوَّنةٌ من عدّة أكواخ صغيرة ، منخفضة ، قد نُحتت من كُتَل الثلج ؛ وكان أهلُ القرية قد علموا بمقدَم هؤلاء « الضيوف » ، فخرجوا جميعًا ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، لاستقبال أولئك الضيوف الصغار .

٤

وبينما كان الإسكيمو يرحبون بضيوفهم ، انشقّ الفضاءُ بصيحات شديدة وعُواء مُزعج . وكان الإسكيمو يتخذون كلابًا ضخمةً لجرّ عرباتهم على الجليد ، وكانوا يحفظون تلك الكلابَ الجرّارة فى حظيرة واسعة غير مسقوفة ، فى طرَف القرية ؛ فلما سمعوا تلك الصيحات الشديدة وذلك العُواءَ المزعج ، أيقنوا أن شيئًا قد حدَث فى حظيرة الكلاب ، فأسرعوا إليها ليعرفوا ماذا هنالك . وقد استطاع عصمت — أن

يعرفَ صوتَ كلبه « روري» بين أصوات الكلاب العاوية ، وكان قد اصطحبه معه بالطائرة فى هذه الرحلة ؛ فأيقن أنه لا بدَّ قد ذهب إلى حظيرة كلاب الإسكيمو ، وأن وجوده بينها ، وهو غريبٌ عنها ، هو سببُ كل تلك الصيحات وذلك العُواء . . .

وقدّر عصمت مصير كلبه المُتْرَف بين تلك الكلاب الجائعة ، وخشيَ أن تقتلَه كلابُ الإسكيمو وتمزقَ جسمَه تمزيقًا ، فأسرع لنجدته . . .

وكان سورُ الحظيرة التى تعيشُ فيها كلابُ الإسكيمو غيرَ مرتفع ، فاستطاع عصمت أن يرى كلبَه وهو يدافعُ عن نفسه بين تلك الكلاب المتوحشة ، والموت يكاد يدركه ؛ فلم يُطقْ صبراً على ذلك المنظر الأليم ، وقفزَ قفزةً عالية ، فإذا هو فوق سور الحظيرة يرى كلبَه العزيزَ بين ستة كلاب مفترسة ، يصارعُها وتصارعه ، ولا يكاد يجدُ سبيلا للخلاص منها بروحه ؛ وعرف عصمت أنه لو صبر لحظةً أخرى لافترست تلك الوحوشُ كلبَه العزيز ، فقفز قفزةً أخرى ، فإذا هو بين تلك الكلاب ؛ فأسرع إلى كلبه فجرَّه من ساقه ، ثم دفعه نحو السور لينقذه ، ثم اندفع وراءه لينقذ نفسه ؛ ولكنَّ الكلابَ ملأها سُعَارُ الغيظ حين رأت فريستَها تُفلتُ من بين أيديها ، فهجمت كلها على عصمت ، لتدركَ منه ثأرها ؛ وكان هجومُها عليه شديداً ، ومفاجئًا ، فلم يستطع المقاومة ، ووقع على ظهره ؛ فأسرعت الكلابُ الضاريةُ بالانقضاض عليه ، انتقامًا لما أصابها من خَيْبة ، بإفلات روري من

بين أنيابها الحادَّة . . .

وكأنما أفلت روري ، ليكونَ عصمت هو الفريسةَ التى تُشبعُ نَهَمَ هذه الكلاب الجائعة . . . . . .

وأشرف عصمت على الموت بين تلك الكلاب الجائعة المتوحشة ؛ ولكن « ناجوك » زعيمُ الإسكيمو ، لم يرض أن يموتَ ضيفُه الصغيرُ هذه الموتة الشنيعة بين الكلاب ؛ فوثب إلى الحظيرة ، وأخذ يدفَعُ عنه الكلاب بحربته الحادة ، ووثب وراءه جماعةٌ آخرون من الإسكيمو ، وفى أيديهم الحرابُ مثله ، ليدفعوا بها الكلاب عن عصمت ، حتى أنقذوه من بينها والدم ينزفُ من يديه ورجليه . . .

٥

وفى المساء أقيمت فى كوخ الزعيم ناجوك — وهو أكبرُ أكواخ القرية — حفلةُ استقبال رائعة ، لأولئك الضيوف الصغار ، وكان الكوخُ الثلجىُّ مُضاءً بمصابيحَ منحوتةٍ من الحجر ، وقودُها من زيت كلاب البحر ؛ وقُدِّم العَشاءُ للضيوف فى أوان حَجَرية كذلك . مملوءة بحَسَاء من دم كلاب البحر . . .

وكان الضيوف الصغارُ ، يجلسون فى صدر الكوخ ، على مصاطب منحوتة من الثلج ، مغطَّاة بالفراء ؛ وعلى باب الكوخ قد ازحم

الأطفال والكلاب ؛ أما النساءُ فوقفْنَ خلف الصفوف . يتطلَّعْن إلى أولئك الضيوف الصغار فى صمت . . .

ولم يجْرِ حديثٌ بين القوم وضيوفهم فى هذه الحفلة ، إلا بعضُ الأسئلة التى كان يتقدمُ بها كوزياك إلى القوم بالنيابة عن زملائه ، ويتلقَّى جوابَها ؛ وكان الزعيمُ ناجوك يتوجَّهُ إليه ببعض الأسئلة ، فيسرعُ بالجواب عنها نائبًا عن عصمت وعن زملائه ؛ فلما مضى شَطرٌ من الليل ، وقف الزعيمُ ناجوك قائلا : إن ضيوفَنا مُتْعَبون ، ويجب أن يناموا ليستريحوا ، وسأصحَبُهم إلى مكان نومهم ، حتى إذا جاء الصباح ، صَحبناهم إلى طائرتهم لينقلوا منها ما يحتاجون إليه من المتاع ؛ أما إذا أرادوا أن يرحلوا ، فسنقدم إليهم أقوَى قطيع من كلاب الجر ، لتحملَهم فى العربات إلى حيثُ يريدون أن يذهبوا . . .

وفى تلك اللحظة خطر ببال عصمت أن يسألَهم عن السفينة التى بدا لهم شراعُها فى الأفق البعيد ثم اختفى ، فطلب إلى صديقه كوزياك أن يسألَهم عنها ؛ ولكن كوزياك لم يكد يفتحُ فمَه بذلك السؤال ، حتى تغيَّرتْ سَحنةُ القوم ، وبدت على وجوههم أماراتُ الحيرة الممزوجة بالغضب ، ولمع الشرُّ فى عيون كثيرة ؛ وارتفع صوتُ الزعيم قائلا فى حَزْم : ليس على مَقرَبة منا سفينة ، ولا يمكنُ أن تأتى إلى هنا سفن ؛ فإن الرجالَ البيضَ الذين يقودون السفنَ فى البحار ، لا يمكن أن يخطُرَ على بالهم أن يقتربوا من هذه الأرض البيضاء ! . .

وكانت نَغْمة الزعيم وهو يتحدث ، تدُلُّ على الغضب ، وفيها

تهديدٌ خفى للأولاد ، إذا بدا لهم أن يعودوا للسؤال عن تلك السفينة . . .

أما الأولادُ فقد استولتْ عليهم الحيرة ، وعَقَلَ ألسنتَهم الصمت ، حين سمعوا كلمات الزعيم ولمحوا نظرات الشر فى عيون أصحابه ؛ فقد كانوا مُوقنين أن هناك سفينة ، وأنهم رأوْا شراعَها يلُوحُ على بُعد ثم يختفى ، وكانوا يعلقون آمالاً كبيرةً على الوصول إلى تلك السفينة ، لعلها أن تحملَهم إلى بلادهم ، بعد أن انقطع ما بينهم وبينها من أسباب الاتصال . . . ولكن هؤلاء الإسكيمو يُنكرون أن تكونَ هناك سفينة ، ويهددونهم تهديداً خفيًّا إذا عادوا للسؤال عنها ، دون أن يعرفَ الأولادُ لذلك التهديد سببًا . . .

وكانت نظراتُ الشر لم تزل تلمَعُ فى عيون الإسكيمو ، منذ سمعوا سؤالَ الأولاد عن السفينة ، كأنهم أتَوْ بهذا السؤال ذنباً كبيراً لا يمكن أن يُغتفَر ؛ وكان يبدو على وجوه الإسكيمو مع ذلك نوعٌ من الخوف ؛ كأنما يتوقَّعون أن تُصيبهم كارثة ، إذا عرَف الأولادُ حقيقةَ الأمر عن هذه السفينة . . .

٦

ونشأ بين الإسكيمو وضيوفهم نوعٌ من الشك والخوف والقلق ؛ فأخذ كلُّ فريق من الفريقين يتوقع الشرَّ من صاحبه ، ويراقبه فى كثير من الحذَر والخوف . . .

ولما استقرَّ المُقامُ بالأولاد فى الكوخ الذى أعدَّ لنومهم ، قال عصمت لأصدقائه فى همْس : اسمعوا ما أقول يا زملائى وعُوه وَعْيًا تامًّا : إن هناك سفينةً ولا شك ، وهؤلاء الإسكيمو يعرفونها ، ولكنهم يُنكرون معرفتَهم بها ، لأنهم يخافون — لسبب ما — أن تعرفوا شيئًا عنها . . .

قال الطيَّار سراج : هذا حقّ ؛ فقد رأيت شراعَها بعينَىَّ هاتَيْن قبل أن يختفى ؛ وقد لمحتُ فى عيون القوم ما يُثبتُ أنهم كاذبون فى كل ما قالوا وقال زعيمُهم ، وإن كنتُ لم أعرفْ لذلك سببًا . . .

قال كوزياك : إننى أوافقكُما على كل هذا ، وأعتقدُ أن فى الأمر سرًّا خطيراً حتَمَل ناجوك على الكذب ، وإن كنت — مثلكما — لا أعرفُ ما هو ذلك السرّ ؛ ولكن ذلك لا يَعْنينى بقدر ما يعنينى شىءٌ آخرُ أشد خطراً ، هو أن هؤلاء القوم قد بدءوا يخافوننا ويُسيئون الظنَّ بنا ؛ ومتى خافوا وساءت ظنونُهم فقد صار المُقام بينهم خطراً ؛ فخذوا حِذْرَكم واحتاطوا لأنفسكم . . .

وقضى الأولاد ليلتَهم فى الكوخ الذى أعدَّ لنومهم خائفين قَلِقين ، يخشَوْن أن ينقضَّ عليهم الإسكيمو فى الليل فيسلبوهم أرواحَهم ؛ ولم ينم عصمت ، ولا الطيَّارُ سراجٌ لحظةً واحدةً من الليل ؛ فلما أشرق الصبح ، رغب عصمت وأصحابُه فى الذهاب إلى مكان الطائرة ، ليحملوا منها بعضَ ما يحتاجون إليه من المتاع ؛ وصَحِبهم بعضُ رجال الإسكيمو إلى هناك ، مخافةَ أن يهربُوا . . .

وقد حاول الطيارُ سراجٌ أن يُصْلحَ ما يمكنُ إصلاحُه من أجهزة

الطائرة ، لعله يستطيعُ الطيرانَ بها ، فينجُوَ بنفسه وبرفقائه الصغار من ذلك المكان ؛ ولكن العَطَبَ الذى أصاب الطائرةَ كان شديداً ، فلم يستطع الطيارُ أن يصلحها ؛ غير أن ذلك لم يحملْه على اليأس ، فأخذ يحاولُ إصلاحَ جهاز اللاسلكى ، لعله يستطيعُ أن يرسلَ به إشارةً برقيةً إلى أقرب محطة من محطات الطيران ، يطلُب منها النجدة ؛ ولكن مولد الكهرباء كان قد فسَد فساداً تامًّا ، فلا سبيلَ إلى إصلاحه ؛ فرفع الطيارُ رأسَه من الجهاز وهو يقولُ لنفسه فى قلق : هل كُتِبَ علينا أن نبقى فى هذه القَفْرة البيضاء ، بين أولئك القوم ، دون أن نملكَ وسيلةً واحدةً من وسائل الفرار ؟ . . .

فقال له عصمت هامسًا : بل إننا نملكُ وسيلةً مهمة ، لو أننا استطعنا أن نصلَ إلى تلك السفينة ، التى بدا لنا شراعُها أمس ثم اختفى . . .

فقاطعه كوزياك قائلاً فى صوت خافت : صَهْ ، لا تنطقْ كلمة « السفينة » مرةً أخرى يا عصمت ، فإن القومَ — فيما يبدو — لا يريدون أن نعرفَ عنها شيئًا ؛ فاحذَرْ أن تَهيجَهم علينا بالحديث عنها !

٧

ومضى يوم ثان ، ويوم ثالث ، والأولادُ يعيشون بين الإسكيمو فى خوف وحذر ، لا يدرون متى تنتهى إقامتهُم فى ذلك المكان ؛ وكانوا يحرصون على إظهار مودتهم للإسكيمو ، كى يتقوا شرَّهم ؛ ولكن الإسكيمو لم يكونوا مطمئنين إليهم ، فكانوا يراقبونهم مراقبةً شديدة ، ويصحبونهم فى كل مكان يذهبون إليه ؛ وفى أثناء ذلك ، كان زعيم الإسكيمو قد أمر طائفةً من الصُّنَّاع بإعداد زحَّافة كبيرة ، ليرحلَ بها الأولادُ إلى حيثُ يريدون أن يرحلوا ؛ ولم تكن هناك وسيلةٌ غيرُ هذه الوسيلة ، لينتقلَ بها الأولادُ من تلك المنطقة . . .

وكان « جواد » الصغير ، هو أشدُّ الأولاد قلقًا من طول البقاء فى ذلك المكان ؛ فقال لكوزياك : متى ينتهى هؤلاء الصُّنَّاعُ من إعداد تلك الزحَّافة ، لنفارقَ ذلك المكانَ البغيض ؟

فأجابه كوزياك : إنهم أشدُّ منا رغبةً فى سرعة ذهابنا ليتخلَّصوا منا ؛ ألستَ تراهم يلاحظوننا ملاحظةً شديدة ، فلا يذهبُ واحدٌ منا إلى جهة من الجهات إلا كان عليه رقيبٌ منهم ؟

قال عصمت : بلَى ، قد لاحظتُ ذلك ، ويبدو أن لتلك السفينة سرًّا من الأسرار يحرصون على ألا نعرفَه ؛ ومن أجْل ذلك يراقبون خُطُواتنا ، ويريدون التخلصَ منا ! . . .

قال الطيارُ سراج : ولكن الزَّحَّافةَ التى يُعدُّونها لرحلتنا لن تفيدَنا

فى شىء ، لأنها لن تذهبَ بنا بعيداً عن تلك المنطقة الكئيبة ؛ فلا بدّ أن نفكرَ فى وسيلة أخرى للخلاص ، وما أرى هناك وسيلةً إلا أن نصلَ إلى تلك السفينة . . . . . .

وكان الأولادُ يتبادلون الحديثَ همسًا ، فقد كانوا يعرفون تمامَ المعرفة ، أن الإسكيمو لن يسمَحوا لهم بالوصول إلى تلك السفينة واكتشاف سرها ؛ ومن أجل ذلك كانوا مُوقنين بأن محاولتَهم الوصولَ إلى السفينة ، إنما هى مغامرةٌ جريئة ، محفوفةٌ بكثير من المخاطر ؛ ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يملكون إلا هذه الوسيلة للنجاة بأنفسهم ، فأقدموا على تلك المغامرة بجُرْأة وحَذَر . . .

وصمتَت عصمت برهةً يفكر ، ثم قال : إذا كانت الزحافةُ التى يُعدونها لنا لا تفيدنا فى الوصول إلى مكان مأهول ، بعيد عن هذه الصحراء الثلجيّة المترامية ، فإننى لا أرى فى الوصول إلى تلك السفينة فائدةً كذلك ، لأننا لا نستطيعُ أن نُبْحرَ بها بعيداً ، وهم يرقبُوننا فى كل خَطوة نخطوها ؛ وأنا قد رأيتُ شراعَ تلك السفينة حين لاح ثم اختفى ، ويُخيَّلُ إلىّ أن ذلك الشراعَ كان مائلا مَيْلاً غيرَ طبيعى ، وأظن أنها سفينةٌ غارقة ، فهيهاتَ أن نستطيعَ تعويمهَا وليس لنا خبرةٌ بالملاحة ولا بإصلاح آلات السفن ! . . .

وعاد اليأس فسَيْطَر مرةً أخرى على قلوب الأولاد ، وظلَّلت وجوهَهم سحابةٌ من الهم ، وبدا لهم المستقبل مُظلمًا شديدَ الإظلام ، لا يُشجع على الأمل فى الخلاص . . .

٨

فى تلك اللحظة، سمع الأولادُ أزيزَ طائرة فى الجوّ، فرفعوا رءوسَهم جميعًا إلى السماء مستبشرين ؛ ولكن الطائرةَ عبرَت السماءَ مسرعةً فلم تلتفتْ إليهم ، ولم تَلبَثْ أن اختفت عن عيونهم ، وعاد اليأسُ يسيطرُ على قلوب الجميع . . . . . .

قال كوزياك وهو يمصمص شَفَتيه آسفًا : إننى أظنُّ يا عصمت أن أباك كان فى هذه الطائرة التى عبرت السماءَ بسرعة ثم اختفتْ ، فقد فات الموعدُ الذى كان مقدَّراً أن نعودَ فيه ، ولا بد أن ذلك قد أقلقَ أباك ، فاستقلَّ طائرتَه ليبحثَ عنا ! . . .

قال جواد الصغيرُ وقد ازداد شحوبًا : ولكنه قد ذهب ولم يَرَنَا ؛ فسنبقَى فى هذه القفرة البيضاء حتى نموتَ ولا يدرى بنا أحد !

قال الطيار سراج : لقد أخذتُ أشيرُ بكلْتا يدىَّ منذ سمعتُ أزيزَ الطائرة ، ولكننا فوقَ هذه الأرض البيضاء لم نَظهرْ لعينيه ، ولولا أن جهازَ اللاسلكى فى طائرتنا معطَّل ، لأرسلتُ إليه إشارةً فى الجو تدلُه على مكاننا ! . . .

فلم يكد عصمت يسمعُ قولَ الطيَّار حتى لمعت فى ذهنه فكرة ، فقال وعلى شفتيه ابتسامةُ أمل : فستكون السفينةُ إذن ، سببًا لنجاتنا فبدا الشكُّ فى وجه الطيار وقال معترضًا : ولكنك تقولُ إن تلك

السفينةَ غارقة ، ولا سبيلَ إلى تعويمها ، فكيف تكونُ سببًا لنجاتنا ؟..

قال عصمت وقد هبَّ واقفًا : لا داعىَ لتضييع الوقت فى الحديث وفى استطاعتنا أن نَعمل ، فإننى على ثقة بأن جميعَ طيَّارى « ألاسكا » يبحثون الآن عنا بين التلال البيضاء ، ولا بدَّ أن نتصل بهم لنخبرَهم بمكاننا ، فهيَّا إلى السفينة . . . . . .

ولم يعرفْ أحدٌ من رفقاء عصمت ، ما هى العلاقةُ بين دعوتهم للذهاب إلى السفينة الغارقة ، وبين تفكيره فى الوسيلة التى يخبرُ بها الطيَّارين بمكانهم ؛ ولكنهم أطاعوه صامتين ، وأخذوا يدبرون حيلةَ للوصول إلى السفينة . . .

ولم يكن الوصولُ إلى تلك السفينة سهلا ، فإنهم — أوّلا — لم يكونوا يعرفون مكانها على التحقيق ، ثم إنهم — ثانيًا — يعرفون أن الإسكيمو

لا يمكنُ أن يسمحوا لهم بالوصول إلى مكانها إذا هم عرفوه ؛ ولذلك كان لا بدَّ لهم من إعمال الفكر والحيلة ، مع الحذَر الشديد ، كى يصلوا إلى السفينة ، وإن لم يعرفوا بعدُ ما هى الفائدةُ التى يمكنُ أن يستفيدوها من الوصول إليها . . .

وكان كوزياك قد غاب عن رفقائه برهة ، ثم عاد إليهم ليقولَ لهم : إن الإسكيمو يُعدُّون عُدَّتهم للخروج لاصطياد الدبّ القطبىّ ، فإن هذا مَوْسمُه ، وقد طلبوا إلىّ أن أخبرَكم بضرورة الاستعداد للخروج معهم . . .

قال عصمت : لا بأس ، فسنخرجُ معهم ، وسيكونُ لنا بهذا الخروج فرصةٌ لتنفيذ خُطتنا ! . . .

٩

وأعدّ سراجٌ والأولاد عُدتهم للخروج مع الإسكيمو فى رحلة الصيد ، فحمل كلٌّ منهم بندقيَّته ، ومضَوْا يتقدمُهم عصمت إلى حيث كان الزعيمُ ناجوك ينتظرُهم . . .

وبدأت الجماعةُ سَيْرَها ، فقال الزعيمُ ناجوك : يجبُ أن نكونَ متلازمين ، فلا ينفردُ أحدنا عن أصحابه !

فنظر عصمت نظرةً خفيَّة إلى أصحابه ، ولكنه لم يَنْبسْ بحرف ، واستمروا سائرين حتى قطعوا مرحلة ، فانحرف ناجوك عن الطريق الذى

كانوا يسلكونه وهو يقول : إن أمامنا منطقةً تسكنها بعض الأرواح الشريرة ، ولذلك يجبُ أن ننحرفَ إلى اليمين . . .

وفهم عصمت ما وراءَ هذه الكلمة من معنى ، فهمس فى أذن الطيار سراج : إنه لا يريدُ أن نمضى إلى أمام ، حتى لا نصلَ إلى الشاطئ ونعرفَ مكانَ السفينة !

قال الطيار : نعم ، هو ما قلت ، فإن هذا الاتجاهَ يؤدى إلى البحر . . .

وفهم كوزياك مثل ما فهمَ عصمت وسراج ، فاقترب منهما وقال هامسًا : إن الجوَّ ينُذرُ بعاصفة قريبة ، فإذا هبَّت فانتهزوا فرصتَها ولا تتأخروا ، وسأشغلُ القومَ عنكم برهةً ثم ألحقُ بكم !

ولم يمض بعد ذلك إلا دقائق ، حتى أظلمت الدنيا ، وصفرت الرياح ، وأخذت ذرَّاتُ الثلج تتطايرُ فتلطمُ الوجوه ، وتصيبُ العيون ، فأسرع الإسكيمو ليبحثوا عن ملجأ يحتمون فيه من شر العاصفة ؛ وانتهز عصمت وأصحابُه الفرصة ، فانفصلوا عن الجماعة متجهين إلى الطريق الذى انحرفوا عنه منذ لحظات ، وتقدموا إلى الأمام وهم يواجهون العاصفةَ بشجاعة . . .

ولاح لهم على بُعد جبلٌ من الثلج يحجبُ ما وراءه من الطريق ، فأسرعوا إليه حتى بلغوه ، ثم أخذوا يتسلَّقونه بشجاعة إلى القمة ، فلم يكادوا يبلُغونها حتى انكشف لهم البحرُ وراء الجبل ، وبدت لهم السفينة واضحة . . .

وزادهم هذا المنظرُ حماسةً وقوة ، فاندفعوا نحوَ البحر فى مثل سرعة البرق ، مخافةَ أن يتنبَّهَ الإسكيمو إلى عدم وجودهم معهم ، فيدركوهم قبل أن يصلوا إلى السفينة ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن وصلوا إليها .

وكانت سفينةً من السفن الشراعية الضخمة ، التى تنقلُ البضائعَ والمسافرين بين اليابان وأمريكا ، ولكنها كانت غارقة ، قد مالت على جنبها وانغرَز مُقدَّمُها فى الثلج . . . . . .

١٠

بدَت خيبةُ الأمل فى وجوه المغامرين الصّغار ، حين رأوْا السفينة غارقة . ولا سبيلَ إلى الانتقال بها من ذلك المكان ، ولكن عصمت قال لهم مشجعًا : لا تيأسوا يا أصدقائى ، فقد وصلنا إلى السفينة برغم القوم ، ولا بد أن نجد فيها ما ينفعنا .

ثم أخذ عصمت يدورُ حول السفينة ، حتى وجد فتحةً فى جانبها ، فنفذ منها إلى الداخل ، ودخل زملاؤه وراءه ؛ وكانت دهشتهم عظيمة ، حين رأوْا محتوَيات السفينة مبعثرةً على الأرض فى غير نظام ، فقال الطيَّارُ سراج : إننى أعرفُ كثيراً من عادات رَبّابنَة السفن ، ولا أظنُّ أن رُبّانًا منهم يمكنُ أن يغادرَ سفينتَه وهى فى مثل هذه الفوضى !

قال جواد الصغير : نعم ، ولا بدَّ أن الإسكيمو هم الذين بعثروا

محتويات السفينة على هذا الوجه ، وأنهم حملوا إلى دورهم بعضَ ما كان فيها . . .

قال كوزياك : هذا حق ، وأظنُّ أن هذا هو السببُ الذى أقلقهم حين سألناهم عن السفينة ، فقد خافوا أن نكتشفَ أنهم لصوص ، قد انتهزوا فرصةَ جُنُوح السفينة إلى الشاطئ فسرقوها ؛ وهم يعرفون — ولا شك — أن عقابَ ذلك هو السجن ، وأن أصحاب السفينة الغارقة لا يمكنُ أن يغفروا لهم هذه الجريمة ! . . .

وكان عصمت فى أثناء ذلك منصرفًا عن الاستماع إلى حديث زملائه ، لأنه كان مشغولا بالبحث عن شىء آخر يَهُمه أن يعثُرَ عليه فى السفينة ، دون أن يعرفَ أحدٌ من زملائه عمَّ يبحث ، ثم لم يلبث أن صاح فى فرح : لقد وجدتُه ! . . لقد وجدته ! . . .

فاتجه أصحابُه نحوه ليعرفوا ماذا وجد ، فإذا بين يديه جهاز لاسلكى صغير ، من الأجهزة التى تستخدَم فى السفن والطائرات ، لإرسال الإشارات البرقيَّة إلى المطارات والموانى ومحطات الاستقبال اللاسلكى ؛ ولم يكد الطيَّارُ سراجٌ يرى الجهازَ بين يدَىْ عصمت ، حتى صاح مثلَه فى فرح ونَشْوَة : لقد نَجَوْنا ! . . لقد نَجَوْنا! . . فسنتَّصلُ بهذا الجهاز بأقرب مَطار ، لنطلُبَ طائرةً تُنقذُنا من الأسْر فى هذه الأرض البيضاء ! . . .

قال عصمت وهو يقبضُ على الجهاز بيديه : لقد كنت واثقًا بأن السفينةَ لا يمكنُ أن تخلُوَ من جهاز لا سلكىّ ، ومن أجل ذلك

غامرتُ بالوصول إلى السفينة ، ومن حسن الحظ أن الإسكيمو الجهّالَ لم يكونوا يعرفون قيمةَ هذا الجهاز ، فتركوه بحاله دون أن يَمَسّوه بأيديهم ؛ فهيّا نسرعْ إلى القرية لنحاولَ استخدامه ، قبل أن يُفاجئونا هنا ! . . .

١١

وكانت العاصفةُ قد هدأت وبدأ الجوُّ يصفو ، وعاد النورُ يغمُرُ المكان ، فأخذ الأولادُ يتسلّلون من السفينة واحداً وراءَ واحد، متجهين إلى القرية ، ولكنهم لم يكادوا يتسلّقون الأكمةَ الثلجيّةَ فى طريقهم إلى القرية ، حتى رأوا ناجوك زعيمَ الإسكيمو ماثلاً أمامَهم ، ومن ورائه رجالُه ، وقد بدا فى وجوههم غضبٌ شديد . . .

دبّ الخوفُ فى قلوب الأولاد حين رأوا الإسكيمو ، ولكنهم اصطنعوا الشجاعة ، واقتربوا منهم وهم يقولون : لقد ضلّلنا الطريقَ فى ظلام العاصفة ، فقادتْنا أرجلنا بلا إرادة إلى هذا المكان .

قال ناجوك والغضبُ يلمعُ فى عينيه كالشرر : كفى خداعاً . . . فهيّا أمامَنا إلى القرية ! . . .

وكان فى لهجته تهديدٌ خفى زادَ الأولادَ خوفاً ، ولكنهم أطاعوا الأمرَ صاغرين ، واستمروا فى طريقهم إلى القرية ، والإسكيمو من

ورائهم : وكان جهازُ اللاسلكى بين يدى عصمت ، يقبضُ عليه بحرص شديد ، لأنه هو الوسيلةُ الوحيدةُ التى يأملونها للنجاة . . .

وكان الطريقُ طويلاً ، فلم يصلوا إلى القرية إلا بعد أن ولّى النهارُ وبدأ الظلامُ يزحف ؛ ثم لم يكد الأولادُ يصلون إلى الكوخ الذى كان مُعَدًّا لإقامتهم ، حتى أغلق عليهم ناجوك البابَ وهو يقول : اعتبروا أنفسكم منذ الآنَ سُجناءَ فى هذا المكان ، إلى أن تنعقدَ محكمةُ الإسكيمو فتقررَ فى شأنكم ما تراه !

ثم وكّل بالباب بعضَ الحراس ، ومضى يتبعُه رجالُه ، وخلّفَ الأولادَ فى قلق شديد . . .

وكان الأولادُ فى أشد التعب ، مما بذلوا من الجهد فى هذا اليوم ، ولكن النومَ لم يطرُقْ جفونَهم من شدة ما يحسون من الخوف والقلق ؛ أما الطيارُ سراجٌ فكان مشغولاً بجهاز اللاسلكى يحاولُ أن يرسلَ به إشارةً برقية إلى بعض المطارات القريبة ، أو إلى بعض الطائرات فى الجو ؛ ولكن الأصوات كانت تصلُ إلى أذنيه خافتةً جدًّا ، لا يكاد يفهمُ منها كلمةً تدلُّ على وصول إشارته ؛ ولكنه لم ييأسْ واستمر فى محاولاته . . .

وفى أثناء ذلك ، لمح كوزياك فتحةً فى جدار الكوخ ، كان القومُ قد نَسُوا أن يسُدّوها ؛ فأشار إليها وهو يهمسُ فى أذن

عصمت : سأخرجُ من هذه الفتحة متسرّاً بالظلام ، لأعرفَ ماذا يريد القومُ أن يفعلوا بنا ، فانتظرونى حتى أعود . . .

ثم تسلّل فى حذَر ، وولّى وجهَه نحو كوخ الزعيم ، حيث كان الإسكيمو مجتمعين يتشاورون فى الأمر . . . . . .

الخاتمة

كان رجالُ الإسكيمو جالسين حولَ الزعيم ، يستمعون إليه فى صمت ، وهو يقول فى غضب : إن هؤلاء الأولاد ، الذين آوَيْناهم ، وأكرمناهم ، وحَمَيْناهم من الأذى ، قد خالفوا أمرنا ، واطلعوا على أسرارنا ؛ فلو أننا تركناهم أحياءً لوَشَوْا بنا ودلوا علينا ، فيعرفَ أصحاب السفينة أننا سرقنا محتوياتها ، ويحقَّ علينا بذلك السجن ، ونفقدُ حرّيّاتنا ... فماذا ترَوْن أن نفعلَ ، لننجُوَ من ذلك الشر الذى ينتظرنا ؟

صاح الرجالُ جميعًا فى غضب : الموتُ لهؤلاء الأولاد ! . . .

وصاح النساءُ من وراء الرجال : الموتُ لهؤلاء الملاعين! . .

وكان كوزياك واقفًا فى الظلام ، وقد ألصق أذنَه بجدار الكوخ ، يستمعُ لما يقولون ، فلم تكد أصواتُهم تصل إليه ، حتى ارتجف رجفةَ الخوف ؛ ولكنه تشجع ، وتسلّل فى حذَر عائداً إلى زملائه ، ليخبرَهم بالمصير المحزن الذى ينتظرهُم ، إذا لم يجدوا وسيلةً للفرار . . .

وكان الطيارُ سراجٌ لم يزل يعالجُ جهازَ اللاسلكى ، الذى حمله عصمت من السفينة ، ليتصلَ ببعض المطارات القريبة ، والأولادُ من حَوْله ينتظرون فى قلق نتيجةَ محاولاته ؛ وفجأةً صاح سراج ، كأنه يتحدثُ إلى أشخاص يراهم ويرونه : نحن هنا . . أنا الطيارُ سراج . . سراج ، ومعى عصمت ، وكوزياك ، وجواد . . . نحن هنا . . . فوق الأرض البيضاء . . . هل تسمعوننى ؟ . . . هَيَّا اقتربوا منا . . . نحن فى خطر . . . سجناءُ فى كوخ الإسكيمو ، فوق الأرض البيضاء.. ألا ترونَنا ؟ . . . وجهوا أضواءكم فى كل جهة ، لتعرفوا مكاننا . . . ألم ترَوْنا بعد ؟ . . . لسنا نستطيعُ أن نُشعلَ ناراً . . .

ثم صمت سراج ، ونظر إلى زملائه وهو يقول : إنها طائرة فى الجو ، أسمعُ صوتها بوضوح ، وتسمعُ صوتى ، ولكنها لا تعرفُ مكاننا ، وأظنُّ أن أباك بين ركابها يا عصمت !

قال عصمت ملهوفًا : أبى ؟ فلماذا لم يهبطْ إلينا ؟

قال سراج وهو يهزُّ رأسَه آسفًا : إنهم لا يرَوْننا ، ويريدون أن نشعلَ لهم ناراً ليستدلوا بها على مكاننا ، ولكنهم قد ابتعدوا منا كثيراً . .

قال جواد الصغيرُ يائسًا : وهل نبقَى هنا حتى يقتلنا الإسكيمو ؟

وفى تلك اللحظة دخل كوزياك وقد ارتسم الخوفُ واضحًا على وجهه ، فقال فى نَبْرة يأس : لقد قرر الإسكيمو أن نموت ! . . .

قال عصمت وقد هبَّ واقفًا : ولكننا لن نموت ، وسننجُو ؛ فهيا إلى السفينة ! . . لا بد أن نشعلَ ناراً ، وأن يستدلَّ أبى على مكاننا

فيهبطَ إلينا . . . هيا إلى السفينة ! . . .

قال سراج : وماذا نفعلُ فى السفينة يا عصمت ؟ إننا نريدُ أن نرشدَ أباك إلى مكاننا . . . نريد أن نشعلَ ناراً . . .

قال عصمت بحزم : هيا إلى السفينة !

قال كوزياك : فكرْ بعقلك يا عصمت ، إن القومَ يريدون أن يقتلونا ، ولن تُنجيَنا السفينةُ من الموت !

وصاح سراج : نريدُ أن نُشعلَ ناراً . . . ناراً ، يستدلُّ بها أبوك على مكاننا ! . . .

ولكن عصمت لم يبال بكلام الطيار ، ولا بكلام كوزياك ، وانطلق مندفعًا من فتحة الجدار ، موليًا وجهَه نحوَ السفينة ، فاندفع أصحابُه وراءه بلاوَعْى ولا إرادة ؛ وسترهم الظلامُ فلم يُبصرْهم حارسُ الكوخ ، ولم يفطنْ إلى خُلُوّ الكوخ إلا بعد وقت ، ففتح البابَ ونظر وراءه ، فلم يجدْ أحداً ، فاندفع نحو القرية وهو يصيح : لقد فرُّوا ! . .

وكان عصمت وأصحابُه قد وصلوا إلى السفينة ، فأسرع عصمت إلى وعاء مملوء بزيت كلب البحر ، فصبَّه على بعض خشب السفينة ثم أشعل فيها النار ... وفى الوقت الذى بدأ فيه اللهب يرتفع نحو السماء ، كان الزعيمُ ناجوك وأصحابه من الإسكيمو قد وصلوا ، فاندفعوا نحو الأولاد يريدون الفتك بهم ؛ ولكن كوزياك صاح بهم : قفوا مكانكم... لا تقتربوا . . . إن أصدقاء أقوياءَ سيهبطون إلينا من السماء ! . . .

ذعر الإسكيمو لكلمة كوزياك ، فوقفوا مترددين برهة ، ثم

استأنفوا التقدمَ نحو الأولاد ؛ وكان سراج فى تلك اللحظة يتحدثُ فى جهاز اللاسلكى قائلا : هل رأيتمونا ؟ اتجهوا نحو النار المشتعلة ، واهبطوا إلينا . . . إننا فى خطر ! . . .

وقبل أن يبلغَ الإسكيمو مكانَ الأولاد ، كانت طائرةٌ تَتَرُّ فى الجو ، ثم هبطت ، فولّى الإسكيمو فارّين نحو القرية . . .

واستقرت الطائرةُ على الأرض البيضاء ، وهبط الطيار ، ثم مساعده ، ثم هبط أبو عصمت ، فاندفع نحوَ ولده فضمَّه إلى صدره وهو يقول فى حنان : الحمدُ لله على سلامتك يا عصمت ! . . الحمد لله على سلامتكم جميعًا ! . .

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٣٠٧٢
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4441 - 4 ISBN

١ / ٩١ / ٣٩٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)